

أئمة النحاة

في التاريخ

الدكتور محمد محمود غالي
رئيس قسم اللغة الإنجليزية
بجامعة الملك عبد العزيز بجدة



أمة النجاة

في التاريخ

الطبعة الاولى
١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م

دار الشروق
للنشر والتوزيع والطباعة
جـــدة - المملكة العربية السعودية هاتف ٢٦٦١٠
ص.ب ٤١٤٦ برقياً : مشكاتنا



الدكتور محمد محمود غالي
رئيس قسم اللغة الإنجليزية
بجامعة الملك عبد العزيز بجدة

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدّمة

١) يقصد بالنحاة هنا من فرغوا أنفسهم لدراسة لسان واحد أو ألسنة متعددة سواء تناولت دراساتهم الأصوات أو الصرف أو النحو أو المفردات في حاضرها وماضيها ولكل جيل من النحاة في الشرق أو الغرب أو في القديم أو المعاصر عامة وأئمة ، وعامة النحاة من شغلوا أنفسهم بدراسة الألسنة بين ما شغلوا به أنفسهم بدراسات أخرى ولكل عامة أئمة برزوا في ميدان الدراسات اللسانية بعد أن عكفوا عليها كل عمرهم أو جله ويعنينا في هذا المقام أن نعرض عرضا سريعا لأئمة النحاة في الماضي والحاضر في محاولة لدراسة تطور الفكر اللساني منذ نشأته التي نعرفها حتى اليوم · ولقد يكون من الأيسر أن نبدأ بالحاضر ثم نتبع بالماضي حتى تكتمل الصورة في إطار واقعي اذ أن الغرب في العصر الحاضر قد أقام من نفسه قَيِّماً على كل ما سلف من تراث ونصب من حضارته جماعاً لكل ما سبقها من حضارات ·

٢) وليس في القرآن الكريم كلمة « نحو » على أي من استعمالاتها اللسانية (اللغوية) أو الاصطلاحية - ويقرب من معناها اللساني ما جاء في سورة البقرة من استعمال كلمة (شطر أو شطره) في خمسة مواضع منهـا

« فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام » « ٠٠ وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » (سورة البقرة آية ١٤٤) ٠

وواضح أن المقصود هنا هو ما نعني به تجاهه أو نحوه ويقرب من هذا المعنى أيضاً كلمة تلقاء التي جاءت في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع احداها في سورة القصص « ولما توجه تلقاء مَدْيَنَ قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل » (القصص ٢٢) ٠ فمعنى تلقاء هنا (في اتجاه ــ أو نحو) ٠

٣) وقد يفرق بعض دارسي الألسنة بين علم (اللغة) اللسان وعلم النحو فيقولون هؤلاء نحويون وأولئك « لغويون » وهي تفرقة في القديم ، يقابلها في الحديث ما يسمى اليوم اللسانيات Linguistics والنحو Grammar والنحو هو وصف قواعـــد اللسان أو الألسنة ولكن اللسانيات هي دراسة اللسان أو الألسنة من وجوهها المختلفة وارتباطاتها بغيرها من الدراسات ٠ وبهذا يكون النحو حقيقة جوهر الدراسات اللسانية لأنه يقعّد القواعد التي تحكم اللسان الواحد أو الألسنة المتعددة ، على هذا فكل نحوي هو لساني وان لم يكن كل لساني نحوياً ٠

والفرق بين كلمة نحو وكلمة لغة ــ ان كلمة نحو عربية وكلمة لغـــة يونانية الأصل دخلت العربية عن كلمة (λογος) وتعني اللسان أو السبب أو الفكرة ، ولذا نرى في القرآن الكريم ، كلمة لسان ولا نرى كلمة « لغة » نذكر منها ثلاثة مواضع :

أ ــ « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قَوْمِهِ ليبين لهم » (ابراهيم ــ ٤)

ب ــ « لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبـــين » ٠ (النحل ــ ١٠٣) ٠

جـ ـ « ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم» (الروم ـ ٢٢) ٠

٤) والأمم والشعوب كالأفراد في ضعفها وقوتها وصحتها ومرضها وقد يعود بعضهـــا الى القوة مرة أخرى كما يرد بعضها الى أرذل العمر وكذلك حضارات الأمم تضعف وتقوى وتصح وتمــرض ٠ فاذا قويت سادت القـــوة مختلف جوانبها واذا ضعفت سرى الضعف في مختلف وجوهها ٠

وحضارة الغرب اليوم هي الحضارة الغالبة لأنها قد قطعت الى العالمية مراحـــل كثيرة فهي حضارة قوية وتسود القوة مختلف جوانبهـــا العسكرية والاقتصادية والسياسية والعلمية ٠

٥) والعلم النظري والتطبيقي سمة بارزة من سمات الحضارة الحديثة وقد شمل البحث العلمي في الغرب الدراسات اللسانية من وجوهها المختلفة الصوتية والصرفية والنحوية والتاريخية ٠

وفي هذا التعريف السريع بالآراء والأفكار التي سادت التفكير اللساني في مختلف عصوره يحسن بنا أن نبدأ بالعصر الحاضر فنتناول أئمة الفكر اللساني فيه وجلّهم غربيون ثم نرجع الى ما سلف من تراث غربي وعربي وشرقي فنتناول أئمة مفكريه محاولة لربط الحاضر بالماضي وتجلية وجوه الشبه والاختلاف بينهما ولتزويد التراث العربي بنتاج الفكر الغربي حتى يتسنى لأصحاب التراث العربي اليوم أن يتبينوا ضخامة ما خلفه الأولون من تراث يستطيعون به ان استعانوا بما لدى الغرب اليوم أن يجددوا ما ورثوه وأن يستخرجوا كنوز ماضي تراثهم العربي ٠ والسبق الغربي في هذا المجال لا يداني ما حققه الغرب في أي مجال آخر من مجالات العلم النظري والتطبيقي٠

تشومسكي Chomsky
والمدرسة التحويلية

١-١ لم يكن تشومسكي Chomsky معروفاً قبـــل أن ينشر كتابه Syntactic Structures (المباني النحوية) في عام ١٩٥٧ م ، ولكنه أصبح منذ ذلك الوقت وبعد أن نشر ما يقرب من عشر كتب إماماً لحركة لسانية ضخمة في الولايات المتحدة الأميركية تسمى حركة النحو التحويلي التوليدي Transformational - Generative .

ويقصد بالنحو هنا حسب تعريفه مجموع القواعد التي يمكن بمقتضاها استحداث كل الجمل الصحيحة وحدها في لسان واحد ·

وقد سمى النحو الذي ارتضاه لنفسه نحواً توليدياً Generative لأنه يحاول الوصول الى القواعـــد البديهية Intuitive التي يستعمل بمقتضاها صاحب اللسان لسانه الذي ولد فيه، وهو بهذا يرى أن كل صاحب لسان ولد فيه يجيد الحديث به واستظهار قواعده دون تلقين من مدرسة أو معلم · صحيح أن المجتمع الذي يعيش فيه الفرد وخاصة الأم والأسرة تكون المرجع الأول للصبي لأول عهده بلسانه الذي ولد فيه، ولكن شومسكي يذهب الى أن هذه العوامل الاجتماعية والأسرية كلها لا تستطيع أن تكون الملقن الوحيـــد للسان المولد Native speech فيرى اذن ، أن هناك قواعد لسانية استظهرها الطفل قبل ولادته بداهـــة ، وهي التي يتحدث لسانه الذي ولد فيه بمقتضاها ، وسمى تشومسكي النحو الجديد تحويلياً Transformational ، لأن مبدأً أساسياً من مبادىء هذا النحو هو تحويل جملة الى أخرى متى تقاربت معانيها ، وان

اختلفت مبانيها ، فعبارة (كُتبَ الدرسُ) مثلا تعتبر تحويلا للعبارة المشابهة معنى المخالفة مبنى ، وهي (كتب الولدُ الدرسَ) ، وهناك قواعد متكاملة وضعها تشومسكي وأتباعه لتحويل الجمل من معلوم الى مجهول ومن تقرير الى استفهام أو نفي ، وما شابه ذلك خاصة في الانجليزية •

١ـ٢ ـ وهناك فارق كبير بين تشومسكي ، ومن سبقوه في الدراسات اللسانية في الولايات المتحدة ، وهو فارق بين تشومسكي المفكر المنطقي وبين من سبقه من الوصافين التجريبيين • فلقد كانت المدرسة التي سادت قبل تشومسكي مدرسة الوصافين التجريبيين ، من أمثال بلومفيلد **Bloomfield** ومن تابعه ، وكانت تؤمن بالمنهج التجريبي في البحث اللساني ، وترى أن قواعد اللسان لا بد أن تكون قواعد وصفية لا معيارية ، كما كان منطق بلومفيلد قياسياً **Inductive** مغايراً للمنطق الجديد الذي اتبعه تشومسكي وهو منطق الاستنباط **Deductive**.

ونتج عن هذا الاختلاف في المنهج المنطقي اختلاف في الاتجاه بالبحث اللساني اختلافا مغايرا عند تشومسكي عنه عند بلومفيلد ، فالمادة اللسانية هي كل ما يريده بلومفيلد وأتباعه ، يتناولونها بالوصف والتحليل والخلوص الى القواعد اللسانية بناءً على هذا الوصف والتحليل • ومادامت المادة اللسانية وحدها هي محور اهتمام المدرسة الوصفية التجريبية ، فكل سؤال عما عداها يعتبر بحثاً بغير هدف معقول ، أما تشومسكي ، فيعتبر المادة اللسانية وسيلة لا غاية في ذاتها ، فهي وسيلة الى الوصول الى التعرف على العقل البشري وكيف يعمل ، لأنه ما دام العقل البشري هو مصدر التفكير ومصدر القواعد اللسانية المستظهرة التي يجيدها كل مولود في لسانه ، فلا بد من التعرف على طريقة اكتساب هذا العقل للمعلومات • وأقرب طريقة لذلك هي دراسة طريقة اكتساب العقل لألسنة المولد **Native Language** ، ولهذا

فان تشومسكي يعتبر نفسه عقلانيا Mentalist ، ويتّهم من سبقوه من الوصافين التجريبيين بالمادية Physicalism ، وفي ذلك من التجني ما فيه ، لأن من سبق تشومسكي أدركوا صعوبة اكتشاف العمليات العقلية فعدلوا عن دراستها الى دراسة الظواهر السلوكية للسان البشري وقصروا أبحاثهم على الألسنة لسهولة دراستها بملاحظة وتجربة ٠

ويبقى بعد هذا أن ما حققه تشومسكي وأتباعه في مضمار دراسة اكتساب العقل البشري للمعلومات عن طريق الألسنة لا زال جهداً في أول طريق طويل يحوطه الغموض وتلفه الشكوك ٠

وهناك إطار عام للفكر اللساني منذ عهود الهنود واليونان القدماء نستطيع على ضوئه أن نفحص في إيجاز مقومات المدرسة التحويلية ، فمنذ ثراكس Thrax اليوناني وبانيني Panini الهندي حتى اليوم ، والدراسات اللسانية تدور حول أمور محددة ، من أهمها :

١ ــ أصوات الألسنة وقواعدها ٠

٢ ــ صرف الألسنة وقواعده ٠

٣ ــ نحو الألسنة وقواعده ٠

٤ ــ طبيعة الألسنة ٠

١ــ٣ ــ بدأت مدرسة تشومسكي بالهجوم على الدراسات الصوتية التي سبقتها ٠٠ فهاجم تشومسكي فكرة الصوتية Phoneme وحاول هدمها مستخدما في ذلك تأويلات الدراسات الصوتية التي ذهب اليها أتباع Bloomfield ، وفي هذا الهجوم على الصوتية يبرز تشومسكي أهمية الدراسة الدقيقة للأصوات ، لا للصوتيات خاصة تلك الدراسات التي سبقه اليها ابن يعقوب Jakobson ٠٠حين تحدث عن السمات المميزة Distinctive Features ٠٠لكل صوت من أصوات الهجائية في بعض اللغات ، ويرى تشومسكي في هذه

النظرية التي قدمها ابن يعقوب أساساً للدراسات الصوتية العالمية ، وهي الدراسات التي نستنبطهـا ونطبقهـا على كل الأصوات الموجودة في ألسنة العالم كله ٠

وهذه النزعة الى العالمية تعتبر مفتاحا لدراسة فكر تشومسكي ومنطقه ، فهو يريد أن يخرج من دراسة لسان واحد مثل الانجليزية الى استنباط القواعد العامة للألسنة جميعا سواء تنـاولت هـذه القواعد الأصوات أو الصرف أو النحو ٠٠ ويضاف الى هذه النزعة الى العالمية الاهتمام الشديد والدقيق بالقواعد العامة التي تنطبق على حالات كثيرة وتنظمها في عمومية واحدة ٠

لم يغفل تشومسكي هذه النزعة الى العالمية حين تحدث عن الصرف فذكر أن الاسم والفعل مثلا عنصران أساسيان في الانجليزية ، ومن السهل اثبات أنهما عنصران أساسيان في كل لسان آخر تعرفه ، ولم يكن الصرف هدفاً لثورة تشومسكي عليه لأن دراسة الصرف في الغرب لم تكن قد استوت على أسس ثابتة ، كما كان الشأن في دراسة الأصوات بل ان تشومسكي لم يهاجم تعريف بلومفيلد للصرفية كما هاجم تعريفه للصوتية والسبب في ذلك واضح ، اذ أن أتباع بلومفيلد أخذوا يستنبطون قواعد تفصيلية لتعريف أستاذهم للصوتية Phoneme ومن اليسير عـلى منطق مفكر مثل تشومسكي أن يهاجم هـذه التفاصيل والتعريفـات ، أما تعريف بلومفيلد للصرفيـة MorPheme فكان تعريفا أبعد عن الدقة والشمول عن تعريفه للصوتية ، ومع ذلك فلا أذكر أن تشومسكي عرض له بنقد أو تحليل ٠ وتعريف بلومفيلد بعـد أن صقله أتباعه أصبح تعريفاً مقبولا حتى لدى تشومسكي ، اذ أن هذا التعريف يقول أن الصرفية وهي أساس البناء الصرفي اللساني وهي أصغر وحدة لسانية ذات معنى ٠

١ـ٤ ـ وقد دخل تشومسكي باب الدراسات اللسانية عن طريق دراسة

النحو Syntax فبدأ على يد أستاذه وهو امام من أئمة الفكر اللساني في الغــرب هو : زيلج هــاريس Z. Harris ولا زال أستاذاً بجامعــة بنسلفانيا Pennsylvania يدرس معه التحويل في الانجليزية بادئاً بدراسة تحويل المعلوم الى المجهول ، ثم تطور تفكيره الى أن استطاع أن يحدث لنفسه هذه المدرسة التحويلية الجديدة • ومن سماتها الكبرى الاعتماد على المنطق الرمــزي Symbolic Logic واستخدامه في استنباط قواعد لسانية عامة • ولقد كان من حظ الدراسات اللسانية ومن حظ تشومسكي نفسه أن يدخل الدراسات اللسانية من باب النحو وليس من باب الصرف أو الاصوات لأن الدراسات اللسانية حين نشر كتابه الأول سنة ١٩٥٧ م كانت قد فرغت من ارساء دعائم دراسة صوتية متكاملة وشرعت في ارساء دعائم لدراسة الصرف ، ولم تكن قد بدأت تولي النحو نصيبه من الدراسة، لأمور كثيرة منها أن الدراسة الصوتية تخضع للتجربة بأكثر مما تخضع له دراسة النحو ، وأن النحو في ذاته معقد لأنه جماع دراسة اللسان في أشكاله المختلفة وارتباط هذه الأشكال بالمعاني المتباينة • ولعل مما لفت نظر تشومسكي في نحو الانجليزية ــ ونحو غير الانجليزية في ذلك ــ هو تعدد وجوه المعاني لتركيب لساني واحد فبدأ بدراسة هذه التراكيب وخلص منها الى رأي ينتمي الى الفكر (الفلسفة) أكثر مما ينتمي الى الدراسات اللسانية الصرفيــة وهو أن اللسان إلهــام Intuition قبل كل شيء وأن تحصيل صاحب اللسان للسانه كتحصيل المعلومات الانسانية المختلفة إلهامية لا يستظهرها الانسان بين ما يستظهر ممن حوله من الأسرة والعشيرة بل هو تحصيل سابق في الأزل • وبهــذا فقد ربط تشومسكي بين النحو والمعنى ، وكان من سبقه من أمثال بلومفيلد يفصلونهما لسهولة دراسة الشكل أكثر من المعنى فأصبح النحو والمعنى معا موضع الاهتمام الاول لدراسة تشومسكي ، وقد ذهب تشومسكي في دفاعه عن المعنى الى أنه أعلن صراحة انتسابه للمدرسة العقلانية التي قال بها ليبتنز وديكارت من أن الالهام والغرائز هي مصدر الأفكار والحقائق •

١ـ٥ ـ وفي هذا الاختـلاف بين تشومسكي وبلومفيلد يكمن الخـلاف الجوهري بين أكبر مدرستين للسانيات في الولايات المتحدة منذ مطلع هـــذا القرن حتى اليوم ، ولقد بلغ من اتهام أتباع تشومسكي لمن سبقوهم من أمثال بلومفيلد ومدرسته أن اتهموهم بالمادية ولعلهم لا يترددون في وصمهم بالالحاد ، والحقيقة أن المادية الملحدة كانت طاغية في أمريكا في الثلاثينيات يوم عبد الناس العلم من دون الله ويوم أن مضى على قيام أول دولة كبرى تدعو الى الالحاد ما يقرب من عشرين عاماً ٠

ولكن دارسي الألسنة من أمثال بلومفيلد لا يمكن أن يوصفوا بالالحاد لسببـــين : ـ

(١) أنهم فضلوا دراسة أشكال اللسان عن دراسة معانيه لتيسر دراسة أشكال اللسان دراسة تقوم على الملاحظة والتجربة ٠

(٢) أنهم وجدوا أن الدراسات اللسانية قد أغرقتها الدراسات النفسية والفكرية الفلسفية وكانت الدراسات اللسانية في أوائل عهدها التجريبي ، كما كانت هذه المدارس النفسية والفكرية مختلفة فيما بينها ولم تصل الى حلول حاسمة في أي من ميادينها الكثيرة ٠

ولا شك أن تشومسكي أضاف الى الدراسات النحوية ثمرات ضخمة من نتاج عمله وعمل من تابعوه في مدرسته التحويلية ٠ فقد صاغ هو وكثير من أتباعه قواعد عامـــة لنحو الانجليزية وغـيرها من الألسنة ٠ واستطاع هو وأتباعه أن يحددوا أنمـاط الانجليزية في تسعة أنمـــاط غاية في البساطة والوضوح ٠ وفعل بعض أتباعه في الألسنة الأخرى شبيهاً بما قدمه في دراسته للانجليزية ولا سبيل لعرض ذلك تفصيلا الا في الدراسات المتخصصة ٠

١ـ٦ ـ ولقد صرح تشومسكي في أكثر من موضع أن دراسته للألسنة

هي وسيلة لدراسة الفكر الانساني ، فالمشكلة التي ينصرف اليها قبل كل شيء هو سبيل الانسان الى المعرفة وما دام اللسان الانساني هو أهم سبل الانسان للمعرفة فتصبح بذلك دراسة اللسان أهم الوسائل لدراسة الفكر الانساني ، ومن هـذا المنطلق الفكري وما استمان به من منطق رمزي دخـل تشومسكي ميدان الدراسات اللسانية • وخلص الى نتيجة فكرية قبل أن تكون لسانية وهي أن اللسان كغيره من المعلومات البشرية ومضات إلهام في الأزل يصل اليهـا الانسان في هذه الحياة عن طريق الالهام وهو بهذا ينكر قول فريق آخر من المفكرين وعلى رأسهم لوك Locke الذي يرى أن المعلومات الانسانية تصل العقل الانساني في هذه الدنيا عن طريق الحواس • والعقل الانساني في هـذه الحالة أكثر ما يكون شبيهـاً باللوح الأبيض حـين خروج صاحبه الى هـذه الحياة الدنيا •

والعلم البشري لا يستطيـع أن يصل الى سبل العقـل الانساني الى تحصيل العلم • ولقد قامت المدارس الفكرية في الغرب يتنازعها هذان المذهبان:

أ) العلم الانساني إلهامي جاءنا عن طريق العقل والغرائز •

ب) العلم الانساني تجريبي جاء العقل البشري عن طريق الحواس •

ويبدو أنه لا مجال لهذا التنازع اذ أنه يمكن القول أن العلم الانساني جماع هاتين السبيلين ، فالعلم الانساني ومضة من الأزل في العقل البشري الأول حين أراد الله لآدم أن يكون « وعلم آدم الأسماء كلها » (البقرة ـ ٣١) •• ومعرفة الأسماء رمز الى معرفة الاسماء والصفات وليس رمز المعرفة حقائق الأشياء وجوهرها •

والعلم الانساني كذلك يكتسبه الانسان عن طريق السمـع والبصر والفؤاد وصدق الله العظيم ، « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » (النحل ـ ٨٧) •

- ٢ -

بلومفيلد ومدرسته

٢ـ١ـ حصل بلومفيلد (Bloom Field) على شهادته الجامعية الاولى وله تسع عشرة سنة ولم تنشأ الجامعة التي تخرج فيها أن تعينه مدرسا بها فرحل الى شيكاغو ودرس بها ثم عاد الى شرق الولايات المتحدة ودرس بها حتى مات سنة ١٩٤٩م ٠٠ ولقد أفرغ بلومفيلد جهده لدراسة الألسنة وخاصة ألسنة الهنود الحمر فرأى ما بينها وبين الانجليزية وغيرها من الألسنة الاوربية من اختلافات جعلته يتشكك كثيرا في بعض الأحلام التي ما بَرِحَت تراود أفكار كثير من النحويين في الغرب من استنباط قواعد عالمية للالسنة أو اتخاذ لسـان عالمي موحد للبشر وما الى ذلك من منى هي أقرب للإحلام منها للواقع فاختلاف العقيدة واللون واللسان من آيات الله في البشر « ومن آياتـه خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم والوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين » (الروم ٢٢) ٠

٢ـ٢ـ وان التزمنا بما اسلفنا من أمور تدور حولها الدراسات اللسانية كان علينا أن نعرض جهود بلومفيلد في الدراسات اللسانية في هذه النواحي :

١ ـ أصوات الالسنة وقواعدها ٠

٢ ـ صرف الالسنة وقواعده ٠

٣ ـ نحو الالسنة وقواعده ٠

٤ ـ طبيعة الالسنة ٠

٥ ـ تاريخ الالسنة ٠

٢ـ٣ـ وقبل أن ندخل في تفاصيل ما أضاف بلومفيلد في باب الدراسات اللسانية ، نعرض في ايجاز لمقال نشره بلومفيلد في ١٩٢٦ م وهي السنة التالية لتاسيس الجمعية اللسانية الامريكية ، والمقال من أروع ما أنتجه الفكر البشري في ميدان الدراسات الانسانية في العصر الحاضر ٠

وقد يؤخذ على هذا المقال تأثره بالفكر السلوكي الذي كان سائدا في الثلاثينات ولكن المقال في مجموعه محاولة لوضع قواعد عامة للسانيات الوصفية والتاريخية وقد اتخذ لها عنوانا « مجموعة فروض لسانية » وقد ابتدع ثلاثة مبادىء هامة في البحث اللساني في هذا المقال ٠

أ ـ ان اللسان أو النطق الانساني ينبغي أن يبدأ بدراسة **المتشـــابه والمختلف** في أصوات اللسان الواحـد ٠ فاذا قورنت أصوات اللسان بعضهـا ببعض وصاحب هذا الاختلاف الصوتي اختلاف" في المعنى كان ذلك دليلا على أن الاختلاف الصوتي اختلاف جوهري ٠

ب ـ انه فرّق بين الصرفية (Morpheme) والكليمة (Word) فاتخـذ الأولى قاعدة لوصف صرف الألسنة بينما اتخذ الثانية أساسا للبحث النحوي ٠

ب ـ أنه أول من ركز على أهمية النظم (Order) في الألسنة فالنظـم في أصوات الصرفية مهم أهمية نظم الكلمات في الجملة الواحدة ونقصد النظم هنا ترتيب الاصوات في الكلمة الواحدة وترتيب الكلمات في الجملة الواحدة ٠

٢ـ٤ـ أما ما أدّاه بلومفيلد للدراسات الصوتية فهو فريد في بابه اذ أنه أول من عرّف الصوتية (Phoneme) تعريفا تابعه فيه علماء الألسنة منذ

كتبه بل أن هجوم تشومسكي ومدرسته على هذا التعريف لم يسقطه من حساب الدراسات اللسانية لأنه كان في حقيقته هجوما على التعريفات التـــي كتبها اتباع بلومفيلد لا على تعريف بلومفيلد نفسه ٠

وتعريف بلومفيد هنا هو ان الصوتية « أصغر وحدة من وحدات السمات الصوتية المتمايزة » وهي في العربية تكاد تنطبق على كل حروف الهجاء ٠ فمثلا حرف الهجاء (ص) يتمايز عن حرف الهجاء(س) في كلمتي صار ـ وسار ـ فيكون صوت الصاد متمايزا عن صوت السين لأن اختلاف الكلمتين في المعنى يرجع الى هذا الاختلاف بين صوتي الحرفين ٠ ويرجع الى بلومفيلد الفضل في تبسيط تعريف الصوتية عما كان عليه من قبل عند من سبقه من علماء الألسنة أمثال دي سوسير (de Saussure) الذي أقحم فكرة الثنائية على تعريفه للصوتية فقال: ان الصوتية لها وجهان وجه سمعي ووجه لفظي ٠ وهذه الثنائية تصاحب تفكير دي سوسير اللساني منذ أول كتابه حتى نهايته ٠

٢ـ٥ـ وتعريف بلومفيلد للصرفية لم يبلغ دقة تعريفه للصوتية فالصرفية عنده هي أصغر الوحدات ذات المعنى في اللسان وهذا التعريف يمثل في الواقع بعض ثمار جهد اتباع بلومفيلد وخاصة نايدا (Nida) الذي يعتبر على رأس أتباع بلومفيلد في دراسة الصرف في الانجليزية وغيرها من الألسنة وكل هذه التعاريف وردت في كتاب واحد خلفه بلومفيلد ولم يخلف غيره الا بضع مقالات جمعت في عام ١٩٧٠ م ولقد صـــدر الكتاب في طبعتين الاولى ١٩١٤ م وكان الكاتب إذ ذاك تحت تأثير المدرسة النفسية العقلانية لأمثال فيس (Weiss) أما الطبعة الثانية فقد صدرت ١٩٣٣ م وكان الكاتب قد بلغ رشده واستوى عالما بعدد من الألسنة لم تتوفر لكثير غيره وقد وضح نضجه في عزوفه عن ربط البحث اللساني بأي مدرسة فكرية أو منطقية أو نفسية ودعوته الى ان يقوم علم اللسانيات علما تجريبيا وصفيا قائما بذاته يعطي غيره من العلوم أكثر مما يأخذ منها ٠

٢ـ٦ـ وقد ابتدع بلومفيلد هنا أيضا تعبيرا لم يسبق اليه ، وهو تعبير (النحوية) Taxeme وقصد بها سمة من سمات النظم القاعدي ـ أي أنها هي التي تحدد النظم في قواعد أي لسان من الألسنة سواء كان هذا نظم الاصوات في الكلمة الواحدة أو نظم الكلمات في الجملة الواحدة وقد حصر أنواع هـذه النحويات في أربع : ـ

أ) النظم (Order) وقصد بـه التتابع الزمني للأصوات في الكلمـة وللكلمات في الجملة ٠

ب) التنغيم (Modulation) وقصد به النَّبْر فيالكلمة أو الجملة والتنغيم في الجملة كلها ٠

جـ) التغيرات الصوتية الصرفية (Morpho phonemics) ومثلها في العربيـة قلب الدال تاء في مثل « وان عدتم عدنا » (الاسراء ـ ٨) ومعلوم ان كلمة عدتم لا تنطق كما تكتب اذ أن الدال تقلب تاء فتنطق ـ عُتُّم ٠

د) الاختيار (Selection) وقصد به مثلا اختيار الاسم أو الضمير المناسب للفعل المناسب ولهذا نقول في العربية : الرجال كتبوا ولا نقول الرجال كتب ٠

٢ـ٧ـ وقد تناول بلومفيلد النحـو الانجليزي بشيء من التفصيل في الفصلين الحادي عشر والثاني عشر من كتابه الشهير ـ اللسان (Languags) وقد ضرب أمثلة تؤيد تحليله من ألسنة أخرى غير الانجليزية منها الروسية والتركية والصينية والأسبانية والهندية ٠

وأفاض بعد ذلك في وصف تركيب الجملة الانجليزية التي تتكون عادة من الاسم متبوع بالفعل فهي بهذا يمكن ان تسمى جمـلة اسمية لانها تبـدأ بالاسم ، ولو ان الاسم فيها يأتي في مرتبة تلي الفعل لأننا يمكن الاستعاضة

بالضمير عن الاسم أما الفعل فلا بد من وجوده على أشكال شتى قد تصل ستة عشر صيغة في الانجليزية ٠

وهذه الجملة التي تحدث عنها بلومفيلد تحوي كما قلنا جزءين هامين ، الجزء الاول ويتكون من الاسم والجزء الثاني يتكون من الفعل ولكن بلومفيلد خطا خطوة هنا استفاد بها من جاء بعده من أمثال بايك (Pike) ذلك أن بلومفيلد لم يتحدث عن جُزْءَيْن للجملة الانجليزية وانما تحدث عن مَوْقِعَيْن (Positions) الموقع الاول ويحتله الاسم والموقع الثاني ويحتله الفعل ، وجاء بعض أتباعه بعد ذلك فحللوا الانجليزية وغيرها على أساس من هذه المواقع وابتدعوا لهم مدرسة جديدة تأخذ من بلومفيلد وانتاج فكره في منهج جديد يحلل كثيرا من ألسنة العالم لينقل اليها الانجيل في جهود تبشيرية علمية مركزة ٠

٢ـ٨ـ وقد وضح أثر التفكير اللساني الهندي في كتاب بلومفيلد حين تناول بالتحليل نحو الانجليزية وصرفها فاستعار مصطلحات كثيرة بأصواتها الهندية ودرجت من بعده شيئا مألوفا لمن يدرسون بلومفيلد ويدرسون التراث اللساني الهندي في الجامعات الامريكية ٠

ومن أمثال هذه الاستعارات من الهندية ما أصبح مألوفا في الدراسات الصرفيـة في الغرب من استعمال عنصر الصفر (Zero element) ونقصد بـه الاشارة الى خلو الكلمة من لاحقة أو سابقة تدل على الجميع كان يفترض وجودها في الكلمة ٠ ولعل ما يقرب ذلك الى الاذهان ما يقال في العربيـة من (نحل) ـ وشجر ـ التي تستعمل لتدل على الجمع وليس في تركيبها الصرفي ما يدل على صيغة الجمع ، كما نقول مثلا في رجل ورجال وبيت وبيوت وفي القرآن الكريم « وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ٠ ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب فيه شفاء للناس ٠٠٠ » (النحل ٦٨ ـ ٦٩) وواضح هنا أن

ـ ياء ـ اتخذي وكلي واسلكي وكسر الباء في ربك ـ وهاء ـ في كلمة بطونها تشير الى الجمع لا الى المؤنث ففي مثل هذه الحالات في الانجليزية افترض بلومفيلد وجود عنصر الصفر دليلا على غياب علاقة الجمع في كلمة مثل (Sheep) التي تطلق على المفرد وعلى الجمع كذلك فنقول (The sheep is) ونعني بها المفرد كما نقول (The sheep are) ونعني بها الجمع وفي الانجليزية من أمثال هذه الكلمة ما يقرب من العشرة • وكذلك كان الهنود القدماء يفترضون وجود هذا الصفر في مثل هذه الاحوال •

٢ـ٩ـ أما طبيعة الألسنة فلم يهتم بلومفيلد بالبحث فيها ولا بالبحث في منشأ اللسان وكيف تطور وهل كان واحدا أم كانت هناك ألسنة كثيرة ؟ وهل نشأ اللسان تقليداً لأصوات الطبيعة أو أصوات الحيوانات وهل كان الهاما أو اكتسابا ؟ كل هذه أمور كانت لا تشغل بلومفيلد عن هدفه الحقيقي وهو وصف الألسنة وصفا تحليليا ثم التعميم من أوصاف ألسنة كثيرة تعميمات وقواعد تنطبق على الألسنة جميعا •

٢ـ١٠ـ ولم ينس بلومفيلد في كتابه أن يتناول الدراسات اللسانية التاريخية في تطورها الطويل حتى اليوم ولقد عني في ذلك عناية شديدة بألسنة الهنود الحمر التي رأى فيها بنية تخالف بنية الألسنة الاوروبية اختلافا كبيرا ، ولقد شاركه في ذلك صديقه وزميله سابير Sapir وقد وصلا معا الى نتيجة واحدة هي أن الصوتيات تتغير مع الزمن وانه ما من لسان درساه الا وأثبتت صحة هذا القانون الصرفي التاريخي وكما درس بلومفيلد التغيرات اللسانية عبر التاريخ ـ درس كذلك التغيرات المكانيــة (الجغرافية) التي يستلزمها اختلاف الأمكنة وما يتبع ذلك من لهجات متعددة للسان واحد • وكانت كتاباته في هذا الصدد فاتحة عمل رائع في دراسة التوزيع المكاني للهجات المختلفة للالسنة وقد نتج عن ذلك بداية الاطلس اللساني للولايات المتحدة واطالس كثيرة عن الألسنة الفرنسية والالمانية وغيرها من الدول الاوروبية •

- ٣ -

دي سوسير

٣ـ١٠ـ اذا جاز لنا أن نقسّم ما أنقضى من عمر القرن العشرين الميلادي أقساماً ثلاثة ، فسنرى أن كل قسم من هذه الأقسام يمثل مرحلة جديدة من مراحل الفكر اللساني في الغرب وكل مرحلة تختلف عما سبقها في كثير من الوجود ٠

فلقد رأينا ان الربع الثالث من القرن الحالي كـــان ولا يزال مسرحا لحركة لسانية جديدة تعتمد على الاستنباط بدلا من القياس وترى في قواعد اللسان إلهاماً في الأزل نصل اليه بتقعيد القواعد عن طريق منطق رمزي وكان على رأسه هذه المدرسة كما رأينا تشومسكي ٠

ثم كانت مرحلة الربع الثاني من هذا القرن فيما بين ١٩٢٥ ـ ١٩٥٧ تقريبا وقد سادت فيها مدرسة الوصف التجريبي التي قادها بلومفيلد وقـــد اختلفت عما جاء بعدها بالاصرار على المنطق القياسي والبعد عن الافتراضات العقلانية التي لا تواثم منهج التجربة ٠

أما الربع الأول من هذا القرن فقد كان إمام الفكر اللساني فيه أوربياً

ولم يكن أمريكيا فبلومفيلد وتشومسكي امريكيان من ابناء الولايات المتحدة أما دي سوسير (de Saussure) إمام الربع الاول من هذا القرن فكان أوربيا نشأ وتنقل بين سويسرا وفرنسا ودرّس في جامعات البلدين وكان عمله في جامعة السربون من ١٨٨١ ـ ١٨٩١ م ٠

٣ـ٢ـ ويشابه دي سوسير بلومفيلد في أن كلا منهما لم يكتب الا كتابا واحدا جامعا لآرائه في الألسنة ووصفها ولكنه يختلف عن بلومفيلد في ان دي سوسير لم ينشر كتابه في حياته بل نشره طلابه وتابعوه بعد موته في ١٩١٣ بثلاث سنوات في ١٩١٦ م كما يتشابه دي سوسير بلومفيلد في أن بلومفيلد يعتبر عمله هو ومدرسته تتمة لما بدأه دي سوسير لأنه يعتبر أن دي سوسير قد وضع الأساس النظري لهذه الدراسات اللسانية الجديدة وصدق من قال من أتباع بلومفيلد من أن فكر دي سوسير يشيع في الجـو اللساني في الولايات المتحـدة وأوربا بين من اعترفوا له بالامامة اللسانية ومن لم يعترف بها ٠

٣ـ٣ـ ويشابه دي سوسير تشومسكي في أنهما اصحاب فكر كما أنهما أصحاب لسان ٠ وفكر تشومسكي كما رأينا فكر عقلاني يستخدم المنطق الرمزي أما فكر دي سوسير فاقل أصالة لأنه استعار فكره من علماء الاجتماع وعلى رأسهم دوركهيم الذي يعتبره كثيرون مؤسس علم الاجتماع في الغرب ٠

ومن هنا أصرّ دي سوسير على أن اللسان ظاهرة اجتماعية وأبرز الدور الاجتماعي للألسنة بـــل ان تفرقته بين الكلام(langue) والحديث (Parôle) ترجع في حقيقتها الى ان الكلام ما تحدث به المجتمع أما الحديث فما ينطق به الفرد ٠ أما بلومفيلد فكان فكره مستترا في طريقته الوصفية التجريبية ولم يشأ أن يفصح عنه إلا حين يقول ان طريقة القياس هي خير الطرق في الدراسات اللسانية ٠

٣ـ٤ـ وينبع فكر سوسير من مصدر آخر غير مصدر علماء الاجتماع وهذا المصدر هو عقيدته المسيحية التي استقى منها مبدأ الثنائية الذي يسود كل كتاباته وتعريفاته ٠

ولقد أشار فيكتابه ــ دراسة فياللسانيات العامة (linguistique générale Cours de) الى ان الثنائية التي يعتنقها مستمدة من ثنائية الجسد والروح في العقيدة الدينية بل انــه شبهها بثنائية الاكسجين والايدروجين حــين يتحدان ليتكون منهما الماء ٠

فكما أسلفنا رأينا أنه قسم اللسان قسمين: قسماً سماه كلاماً وقسماً آخر سماه حديثا كما قسم العلاقة اللسانية قسمين قسما سماه المدلول (Signifié) وهو الأشياء التي نراها مثل الكتاب والبيت وما الى ذلك والقسم الآخر سماه الـــدال Sign sinifiant وهو الاسم الذي يطلق علىهذا الشيءكما قسمالدال بعد ذلك قسمين هما الصوت الى جانب الصورة الذهنية ٠

ثم قسم الدراسات اللسانية قسمين : قسماً للدراسات اللسانية الوصفية وقسماً آخر للدراسات اللسانية التاريخية ٠ وسنرى أطرافاً أخرى لهذه الثنائية تتناول آراءه في مختلف نواحيها الصوتية والصرفية والنحوية والتاريخية ٠

٣ـ٥ـ وكانت دراسة دي سوسير للصوتية جديدة في بابها لم يسبقه اليها الا قليلون فقد عرف الصوتية بانها « جماع الانطباعات السمعية والحركات اللفظية فهي تعني الوحدة المسموعة والوحدة الملفوظة معاً تكيف كل منهمـــا الاخرى فهي اذن وحدة مركبة ذات وجود في كلتا الحلقتين » ، وواضح ان هذا التعريف الثنائي للصوتية يختلف كثيرا عن تعاريف من جاء بعده ممن عرفوا الصوتية بأنها أصغر واحدات الأصوات المتمايزة ٠ وقـــد يكون تعريف دي سوسير أشمل مِمّا عــداه مِن التعريفات إذ أنه لم يغفــل الجانب السمعي

للصوتية ولكن هذا الشمول لا تجليه الدراسات السمعية الحديثة التي لم تتقدم بالسرعة والدقة اللتين تقدمت بهما الدراسات اللفظية أو دراسات مخارج الأصوات ·

٣ـ٦ـ ولم يَحْوِ كتاب دي سوسير تعريفاً للصرفية مماثلا لتعريفه للصوتية فقد كان القرن العشرين في بدايته ولم تكن الدراسات الصرفية قد بلغت من الدقة ما بلغته بعد دي سوسير ولذلك نراه يفيض في تعريف الكلمة وشرحها وهو هنا لا يستعمل (الكلمة) ولكنه يستعمل اصطلاحا خاصا به هو العلامة اللسانية · وهذه العلامة اللسانية ذات شقين ، شقاً سمّاه الدال والآخر سماه المدلول ·

ويعرف العلامة اللسانية على أنها سطرية ـ linear ـ أي أنها تأتي في تتابع زمني منتظم فاذا قلنا في العربية مثلا ـ رجل ـ نرى أن هذه الكلمة قد جاءت على شكل أصوات متعلقة في الزمن بادئة بصوت الراء تتبعها الفتحة يتبعها صوت الجيم ، ثم يأتي بعده صوت الضمة ثم صوت اللام في تتابع زمني محدد ·

٣ـ٧ـ والعلامة اللسانية عند دي سوسير لها صفة القسر (Arbitrary) ويعنى بذلك عدم التلازم أو الارتباط الطبيعي بين العلامة أو الكلمة وما تدل عليه ، فاذا قلنا مثلا كلمة ـ كتاب ـ في العربية نرى أن ما يقابلها في الانجليزية ـ Book ـ وفي الفرنسية ـ Livre ـ فليس بين كلمة كتاب في العربية وبين ما تدل عليه من أداة للقراءة أي ارتباط بين هذه الاصوات الموجودة في كلمة ـ كتاب وبين الكتاب نفسه ، وكذلك بالنسبة لكلمة ـ Book ـ في الانجليزية وعدم الارتباط الطبيعي بين أصوات هذه الكلمة وما تدل عليه هذه الاصوات ، وكذلك في الفرنسية فليس هناك التطابق الطبيعي بين الكلمة والجسم المادي الذي نسميه كتابا ويتكون من ورقات جلدت جميعها معا ·

ولعل حجة دي سوسير هنا ترجع الى اختلاف الألسنة فيما بينها في تسمية نفس الشيء الواحد بأسماء مختلفة ، فلو كان هناك ارتباط طبيعي بين الكلمة وما تدل عليه لأصبح من الممكن ان نتوقع تقارب الاصوات ان لم يكن تماثلها التي تعبر عن نفس الشيء الواحد وَلَوَجَبَ أن يكون هناك تقارب بين،كتاب، وBook و ــ Livre ــبأكثر مما نراه بين هذه الكلمات الثلاث ٠

٣ــ٨ــ وما دام دي سوسير قــد اتخذ الكلمة لا الجملة اساسا للتحليل اللساني فلا يعتبر كتابه قــد قدم للدراسات النحوية ثروة ضخمة تعــادل في ضخامتها ما أداه الكتاب للدراسات الصوتية والصرفية واللسانية عامة ٠

ولذلك فانا نراه يعرض بعد ذلك لتعريف اللسان يتحدث عن الوصف أو التحليل اللساني فقسمه قسمين كذلك : القسم الاول هو الدراسات اللسانية الوصفية ــ Synchronic ــ والقسم الثاني وهو الدراسات اللسانية التاريخية Diachronic ــ وهو يهاجم الدراسات التاريخية التــي انتعشت في القــرن التاسع عشــر ويصفها بالعقم ، ويفضــل أن تكون الدراسات اللسانية كلهــا دراسات وصفية ٠

وقد يبدو دي سوسير محقا في الفصل بين الدراسات الوصفية والدراسات التاريخية ولكن هجومه على الدراسات التاريخية وما بذل فيها من جهود ضخمة كانت الاساس الذي بنيت عليه النظرية الصوتية التي نادى بها دي سوسير نفسه في أوائل القرن العشرين وتابعه عليها من جاء بعده حتى اليوم ٠

٣ــ٩ــ ويمكن ان نقسم كتاب دي سوسير ثلاثة أقسام :

أ) **القسم الاول :** ويتناول فيه مؤلفه المبادىء العامة لعلم اللسانية وعلم الصوتيات ٠

ب) **القسم الثاني :** ويتناول فيه اللسانيات الوصفية ٠

جـ) **القسم الثالث :** ويبحث فيه اللسانيات التاريخية والمكانية ٠

القسم الاول :

ويقدم فيه بدراسة لتاريخ الدراسات اللسانية عارضا لتاريخها في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي موضحا ان هذه المدرسة اللسانية التاريخية قد استنفدت أغراضها لأنها قصرت عن الوفاء بمتطلبات البحث العلمي الجاد اذ فاتها انها لم تحدد موضوع دراستها تحديدا دقيقا ٠

وبدأ دي سوسير في تحديد مجال الدراسات اللسانية بتحديد صلة اللسان بغيره من مجالات النشاط الانساني وتحديد مجال الدراسات اللسانية نفسها بدراسة تاريخ الألسنة ثم العوامل التي تؤثر في الألسنة عامة ثم استخلاص القوانين العامة التي ترد اليها كل المظاهر اللسانية تاريخية كانت أو وصفية ٠ ثم يحاول تعريف اللسان في خطوات أربع :

١ ــ فاللسان مجموعة أصوات يلفظها الفم وتستقبلها الاذنان ٠

٢ ــ وهذه الأصوات ترتبط بفكرة معينة أو معنى معين ٠

٣ ــ وهذه الأصوات المرتبطة بمعنى معين تكون وسيلة التفاهم بين الفرد وغيره من الافراد في المجتمع الانساني ٠

٤ ــ وهذه الأصوات ذات المعنى التي يستعملها الفرد في المجتمع لها وجهان : وجه تاريخي متطور ووجه وصفي ثابت حاضر ٠

وهذا الارتباط الوثيق بين هذه الخطوات الأربع يجعل من اللسان ظاهرة انسانية معقدة ولا ينبغي أن نستقل في دراستنا بوجه من الوجوه الأربعة دون غيره من الوجوه ٠ فالدراساتالمسانية لا بد أن تشمل هذه النواحي كلها اذا اردنا فهم اللسان الانساني ولا بد لنا من هذا الفهم اذا أردنا أن ندرس

مختلف نواحي النشاط الانساني لما هنالك من ارتباط بين اللسان والدراسات الانسانية الأخرى من علـــم وظائف الأعضاء وخواص الصوت وعلم النفس والفكر الانساني عامة بل أنه لا يمكن تصور وجود هذه المعارف الانسانية بغير اللسان ٠

ثم يتناول دي‌سوسير دراسة الصوتيات وهي الوحدات الصوتية المتمايزة التي نعبر عنها في العربيـــة بأصوات حروف الهجـاء ٠ ويصف الخواص الصوتيـة لمختلف الحروف في مجموعة الالسنة الهند أوربية من فرنسية والمانية ولاتينية٠ وهو في هذا يعتبر رائدا لكثير من الدراسات الصوتية الحديثة خاصة تلك التي تعتمد في التحليل الصوتي على السمات الصوتية المتمايزة distinctive sound features التي لا تُفرّد الأصوات بالدراسة المفصلة ولكنهـا تدرس الصفات الصوتيّـة العامة لمجموعة الاصوات « الحروف » فتتحدث عن الجهر والهمس ولا تتحدث عن الباء مثلا كصوت مجهور والفاء كصوت مهموس وتتحدث عن الغنّة في تلفظ بعض الأصوات بدلا من أن تتحدث عن النون كصوت أنفي أو الميم كصوت أنفي كذلك ٠

القسم الثاني :

أما القسم الثاني من الكتاب فيحاول فيــه ان يعرف طبيعة الكلمـــة أو العلامة اللسانية linguistic sign فيعرفها أنها جماع فكرة وصورة صوتية فكلمة شجرة مثلا لا تعتبر علامة لسانية كاملة الا اذا نظرنا اليها على انها مجموعة أصوات وهذه الأصوات تدل على فكرة مجردة هي فكرة الشجـرة أو معنـى الشجرة اذ لا بد ان تشير كل شجرة بعينها الى جنس النبات كله وهو ما نطلق عليه شجر ، فارتباط اللفظ بالمعنى عنـــده ارتباط أساسي لفهم طبيعـة العلامة اللسانية (الكلمة) وعلم الألسنة بوجه عام ٠

وبعد أن يمايز بين اللسانيات الوصفية واللسانيات التاريخية يتنـاول

اللسانيات الوصفية بالبحث فيتحدث ثانية عن الصوت وارتباطه ارتباطا وثيقا بالمعنى ويضرب على ذلك مثلا بالورقة البيضاء فالفكرة احد وجهي هـــذه الورقة البيضاء والصوت هو وجهها الآخر • وهو هنا يصل الى نقطة هامة في كتابه اذ أنـــه هنا يربط بين الصوت والفـــكرة أو المعنى برباط محـــكم حين يصور الفكر أو المعنى بأنه نطاق غير محدد وكذلك الاصوات فهي منطقة غير محددة ولكن اللسان الذي يربط بين هذين المنطقتين غير المحددتين هو الذي يضفي عليهما شيئا من التحديد • وليس معنى ذلك ان اللسان يبدع للفكر وسيلة صوتية للتعبير عنه ولكن اللسان لا يعدو أن يكون واسطة تربط بين الفكر والصوت • « فلا الفكر يتخذ شكلا ماديا ولا الأصوات تستحيل وحدات عقلية •• فوحدات اللسان تؤدي مهمتها في الوقت التي تتخـــذ فيها شكلها المعروف بين كتلتين لا شكل لهما »[1] هما كتلتا المعنى والصوت •

وهو اذ يتحدث عن قسرية العلامة اللسانية (arbitrariness) يربط بـــين ذلك وبـــين فكرتين رئيسيتين في كل كتابـــه وهما فكرة الجماعـــة وفكرة القيمة • ذلك ان قسرية العلامة اللسانية أو الكلمة عنده هـــي التي تفسر كيف ان الكلام ظاهرة اجتماعية ، فلا بد من وجود مجتمع له قيم محددة ، وهذه القيم هي وحدها التي توجـــد معايير الاستعمال والقبول للكلمات في المجتمع ، وبغير ذلك لا يمكن ان توجد القيم « فالفرد وحده عاجز عن ايجاد أي قيمة من القيم »[2] •

وهو يستعير استعمال كلمـــة قيمة **valeur** من نظريات الاقتصاد السياسي السائدة في عصره بل انه يستعمل كلمة قيمة خارج استعمالها اللساني ويضرب مثلا عن ذلك بالعملة المتداولة فأي قيمة لأي عملة لا بد أن تخضع في نظره لعاملين •

---

(١) ، (٢) دراسة في اللسانيات العامة • دي سوسير ص ١١٢ •

١ ـ العامل الاول وهو المخالفة فكل عملة لا بد ان تخالف غيرها مما يمكن ان تستبدل به ·

٢ ـ العامل الثاني وهو المشابهة فكل عملة لا بد ان تشابه غيرها ولو مشابهة غير كاملة ·

فالدولار أو الجنيه أو الريال يمكن تقييمها على اساسين :

١ ـ فيمكن ان تُقيَّم على أساس اختلافها عن غيرهما مما يمكن ان تستبدل به فالعملة في هذه الحال تقيم على اساس ما نستطيع ان نستبدل أو نشتري بها من خبز أو قماش أو أي متاع آخر ·

٢ ـ كما يمكن ان تقيم بمقارنتها بما يمكن ان تشبهه ولو شبها جزئيا فالدولار أو الجنيه أو الريال يقيم على اساس ارتباطه بالوحدات النقدية المشابهة والمرتبطة به فالدولار يقيم بمقارنته بالسنت والجنيه والريال بالشلن أو القرش وهكذا ·

وكذلك في الألسنة فان الكلمات تستمد معناها وقيمتها من اختلافها وتشابهها مع غيرها من الكلمات · ويضرب على ذلك مثلا فيقول ان كلمة mouton في الفرنسية لها معنى كلمة sheep في الانجليزية · ولكن الكلمتين تختلفان في القيمة وان اتفقتا في المعنى وذلك لأسباب كثيرة منها أن كلمة mutton في الانجليزية تعني قطعة من اللحم تقدم طعاما للآكلين ولا تستعمل كلمة sheep في هذا المقام · فالاختلاف في القيمة بين كلمة sheep وكلمة mutton في الانجليزية يرجع الى ان هناك كلمتين للمعنيين في الانجليزية ولكن الفرنسية لا تستعمل لهذين المعنيين الا كلمة واحدة وهي كلمة mouton .

ثم يخلص من مناقشة قسرية العلامة اللسانية أو الكلمة الى اللسان كنظام system فيقول ان العلامة اللسانية حقيقة موجبة positive

ولكنها تتألف من الفكرة أو الصورة الذهنية وهي في ذاتهـا سلبيـة negative ومن الصوت وهو في ذاته سلبي كذلك • ومن هذه السلسلة المتشابكة والمتتابعة من الاصوات المرتبطة بالمعاني أو الصور الذهنية يتألف نظام كل لسان من الألسنة •وهـذا التتابع أو التسلسل الذي يأتلف منـه النظـام اللساني يثبت في رأيـه ان اللسـان الانسـاني هـو شـكل وليس مـادة [1]
(language is a form not a substance)

ويمكننا ان نتخلص من هذا التناقض الظاهري في هـذا التعريف اذا تذكرنا انه يعني هنا نظام الألسنة ولا يعني اصواتها متفصلة عن معانيها أو معانيها مستقلة عن أصواتها •

القسم الثالث :

أما في القسم الثالث فيتحدث عن اللسانيات التاريخية ويرى أن أهـم حقيقة في دراسة تطور الالسنة هو خضوعها لقانون التغير Change فكل لسان لا بد ان يتغير مع اختلاف الزمان والمكان • وخير دليل على هذه التغيرات في الالسنة هو ما يطرأ على أصواتها من تغير يكون منتظما غاية الانتظام ، وهذا ما نشاهده في العربية حين نقارنها بلهجاتها المختلفة فنرى ان القاف في العربية أصبحت همزة أو جيما / g / فيمعظم لهجاتها كما نرىأن الثاء العربية تصبحتاء في معظم لهجاتها كذلك •

ومع عامل التغير الصوتي في الدراسات التاريخية للألسنة نرى عاملا آخر يوازيه ويخفف من آثاره وهو عامل القياس analogy وهو عامل هـام خاصة في الصيغ والمفردات المستحدثة كما نرى مثلا في كلمة radio أو كلمـة رائد الفضاء astronaut اذ أن الانجليزية تجمع هـذه الكلمات باضـافة S قياسا على غيرهما من الكلمات مثل bags , books .

---

(1) ص ١٢٢ الترجمة الانجليزية ـ طبعة بيتر اوين •

وينتقل بعد ذلك الى اللهجات المختلفة لبعض الألسنة ويشير الى ما تم في هذا الباب من دراسات قيمة انتهت ببعض الباحثين في بعض الألسنة الغربية بمصورات لسانية ترصد مختلف اللهجات للسان الواحد في بلد معين مثـــل المصورات اللسانية لألمانيا والمصور اللساني لفرنسا الـذي قام بـه جيرون Gilliéron .

وينهي دي سوسير كتابه بجملة تعتبر خلاصة ما ذهب اليه وهو ان دراسة الألسنة ينبغي ان تكون دراسة مستقلة عما عداها من الدراسات المتصلة بالألسنة مثل علم النفس وعلم الانسان والفكر والتاريخ ٠

١٠ ـ وتتضح بذلك أهمية كتاب de Saussure اذ انـه يمثـل جماع الفكر الغربي في أوائل القرن العشرين الميلادي حـين يحاول هذا الفكر أن يدرس علم اللسانيات الحديث دراسة علمية محـددة مستقلة عما عداهـا من الدراسات الانسانية وان كانت قد افادت بما عند غيرها من معرفـة فأفادت من العلوم التطبيقية في دراسة أصوات الألسنة كعلم تطبيقي جـديد يخضع للملاحظة وللتجربة ، وأفادت من الاقتصاد السياسي نظرية القيمة وطبقهـا سوسير على فهمه للعلامة اللسانية وللتفرقة بين القيمة والمعنى كما اسلفنا ٠

كما أفاد دي سوسير كذلك من علمـاء الاجتماع في ابراز دور المجتمع في تكوين القيم الانسانية وفي تأكيد دور المجتمع في نمو اللسان وتطوره عند الفرد والجماعة ، كما انفرد بين علماء الالسنة باصراره على هذه الثنائية التي استمدها من أصول الحضارة المسيحية الغربية والتي فسر بهـا مختلف الاشكال اللسانية من أصوات وكلمات وجمل ٠ وكذلك كان اصرار دي سوسير على أن الكلمة أو العلامة اللسانية مركبـة من الصوت والمعنى اصرارا له ما يبرره من كل ضروب الفكر الغربي السائدة في عصره ، ولعل لتأكيده على

ان المعنى جزء لا ينفصم من العلامة اللسانية أهمية خاصة بعد ان اتجهت المدارس اللسانية الحديثة الى الاهتمام بدراسة المعنى بعد ان قطع علم اللسانيات خطوات ضخمة في دراسة اشكال الالسنة ٠



- ٤ -

ابن سينا

٤-١- مقدمة :

كانت العصور الوسطى عند الغرب عصور جهل وظلام وكانت عند المسلمين عهود نور وحكمة وفكر وهذه العصور الوسطى في عداد الزمن هي العصور الاولى عند المسلمين حين نزل القرآن برسالته السمحة الشاملة بشرى وهدى للعالمين .

وفي هذه العهود الاولى اقتضت طبيعة الدعوة الى الاسلام الا يشغل الصدر الاول نفوسهم بغير اقامة الدولة القرآنية والدفاع عنها ونشر رسالة الاسلام شرقا وغربا ، ولكن ما أن جاء القرن الثاني الهجري حتى بدأت ثمار النهضة الفكرية تزدهر ويعنينا هنا أن نذكر أن أول كتاب عن العربية كتب في هذا القرن ألّفه سيبويه ونقل فيه كثيرا من آراء أستاذه الخليل بن أحمد وأصبح الكتاب ينهج منهجا واحدا ولكنه جماع لفكر امامين من أئمة الفكر اللساني في القرن الثاني الهجري ثم كمل ازدهار الثقافة الاسلامية في القرن الرابع الهجري وظهر فيه كتابان جديدان كتاب « الخصائص » وكتاب « سر صناعة الاعراب لابن جني » .

٤-٢- أما ابن سينا فقد كان اماما في الفكر والحكمة ولم يكن إماما في الألسنة أو النحو فليس له اتباع يمكن أن يدعوا انهم كانوا مدرسته التي

تابعته على نهجه اللساني والنحوي ومع ذلك فقد ترك كتابا في الأصوات هو فريد في بابه لانه عالج الاصوات في أوائل القرن الخامس الهجري بطريقة لم تتح لكثير ممن جاء بعده أو قبله والكتاب الذي نعرضه هنا من منشورات جامعة طهران تحت عنوان : اسباب حدوث الحروف أو مخارج الحروف : لابن سينا ٠

وقد قسم ابن سينا كتابه فصولا ستة :

أ ـ سبب حدوث الصوت ٠

ب ـ سبب حدوث الحروف ٠

٣ ـ تشريح الحنجرة واللسان ٠

٤ ـ تفصيل أسباب حدوث الحروف حرفا حرفا ٠

٥ ـ في الحروف غير العربية الشبيهة بحروف العربية ٠

٦ ـ الاصوات المشابهة للحروف ٠

٤ـ٣ـ يتحدث ابن سينا عن سبب حدوث الأصوات عامة قبل أن يتحدث عن أصوات الالسنة فيرى ما يوافقه عليه علماء اليوم من أن « الصوت سببه القريب تموج الهواء دفعة واحدة بسرعة وقوة بسبب القرع أو القلع » ٠ ويرى ان القرع هو السبب الذي يكون سببا للصوت في أغلب الاحيان ولكنه ليس السبب الوحيد للاصوات ذلك لان القلع كذلك سبب هام لحدوث الاصوات ٠ ويمكن أن نفسر القرع بأنه التقاء شديد بين شيئين والقلع افتراق شديد بينهما ٠

ويقرب من هذا ما يقول به المحدثون عن أصوات الألسنة على أنها تنقسم الى صنفين : صنف من الهواء خارج من الرئتين الى الفم فالهواء الخارجي ويسمونه (egressive) أو الهواء الخارج ٠ وصنف آخر من الهواء الذي يدخل من الهواء الخارجي وقد يصل الى أدنى الحلق وقد يصل دون ذلك ويسمى

الهواء الداخـل (ingressive) · والصنف الاول من الهـواء هو أكثر الصفتين شيوعا لأحداث أصوات الألسنة ·

٤ـ٤ـ أما الفصل الثاني فيتحدث فيـه ابن سينا عن سبب حـدوث الحروف أو الأصوات اللسانية فيقول ان التموج هو الذي يفعـل أو يحدث الصوت · ثم يتكلم بعد ذلك عن طريقة تموج الصوت وانقسامها عامة الى أصوات مستمرة سماها متصلة وأصوات متقطعة أو متشظية · ويمكن أن نقارن هذه التفرقة بما اتفق عليه المحدثون من أن الساكنات يمكن ان تنقسم الى أصوات مستمرة (continuants) وأصـوات منحبسة أو منفجـرة أو ما يسمى (plosives أو stops) وهو هنا لا يفرق بين هـذين الصفتين تفرقـة المحدثين لهما ولكنه يريد ان يفرق بين صوت العين وصوت الغين فيرى أن صوت العين متصل أما صوتا الغين والحاء فصوتان متشظيان ومتشذيان ·

ثم قسم طرق احداث الأصوات الساكنة قسمين فقسم سماه المخارج وقسم آخر سماه المحابس ولعله قصد بالمخارج الطريق الذي يسلكه الصوت من الحنجرة حتى خروجه من الفم · أما المحابس فهي الأجزاء المختلفة في جهاز النطق وهو ما يسمى باسم أو المضائق التي يمر بها النفس في طريقه الى خارج الفم ·

٤ـ٥ـ ثم يعرف الحرف أو الصوت الساكن : « والحرف هيئة للصوت عارضة له يتميز بها عن صوت آخر مثله في الحدة والثقل تميزاً في المسموع ·

وهو هنا سباق الى كثير مما اتفق عليه المحدثون حين يعرفون الصوتية (phoneme): وقد سبقت الاشارة الى التعريفات المختلفـة لمعنى الصوتيـة في العصر الحديث فوجدنا ان تعريف بلومفيلد يبرز ناحية الصوت والتمايز بين الأصوات ودي سوسير يبرز الجانبين اللفظي والسمعي للصوتية · واذا قارنّا تعريف ابن سينا بهذه التعاريف وجدنا أن تعريف ابن سينا يختلف عنها في النواحي الآتية :

أ ـ الهيئة العارضة للصوت:

ويقصد هنا ان الحرف نتيجة تشكل خاص للصوت الانساني وهذا يقارب ما تعارف علمـاء الاصوات علـى تسميته اليوم (Configuration) وهذه الهيئـة تنتج عن عارض يحدث للصوت ويتمثل هذا العارض في الشفتين أو اللسان أو غيرهما من اللوافظ المتحركة articulators .

ب ـ التمايز بين الاصوات :

وهذه ناحية هامة في تعريف الصوتية عند المحدثين سواء منهم من قال بأن الصوتية صوت متمايز عن غيره من الأصوات أو من قال ان الدراسات الصوتية ينبغي ان تقوم على أساس من السمات الصوتية المتمايزة وحصروا هذه السمات فيما يقارب من عشر • أو من قال ان الصوتية لها شقان لفظي وسمعي اذ أكد كل من هؤلاء أن التمايز والاختلاف شرط اساسي لاثبات استقلال صوت عن صوت آخر واثبات ان كلا من الصوتين صوتية قائمة بذاتها مستقلة عما عداهـا •

وسواء قال الاوروبيون اليوم بمبدأ التضاد (opposition) أو من المقابلة (contrast) فكلا اللفظـين يتقابلا مـع ما يقول به ابن سينا من التمايـز (distinctiveness) بين الاصوات بعضها وبعض •

جـ ـ العين والغين :

ثم يقسم الاصوات العربية قسمين كبيرين أولهما الاصوات الحادة أو المتصلة مثل العين وثانيهما الأصوات غير المتصلة أو المتشظية مثل الغين •

د ـ التميز في المسموع :

وهو هنا يشير الى ناحية هامة هي أن هذا التمايز في الأصوات هو تمايز

يبنى على حاسة السمع فلا يغفل هنا دور الأذن في تمييز الأصوات ولعل اشارته هنا من الاشارات القليلة في سلف هذه الامة من علماء العربية الذين ربطوا بين المخارج والمسامع وبين الفم والأذن في ادراك الأصوات وتمييزها ۰ ولقد فتح علماء اليوم بابا واسعا للدراسات السمعية (acoustics) ليس لنا منه في العربية اليوم الا القليل ۰

٤ـ٦ـ ثم يقسم الأصوات العربية وهو تقسيم يكاد أن يكون عاماً في الألسنة التي نعرفها فنقول ان الاصوات تنقسم قسمين من حيث طريقة اخراجها:

أ ـ أصوات تنتج حبسات تامة للنفس ويسميها أصواتا مفردة وهي ، تقابل ما يسمى اليوم أصوات الانفجار أو الوقف ۰ ولكنها عنـــده تشـمل الأصوات الأنفية واللام كذلك ۰

ب ـ أصوات مركبة ينتج عن حبسات غير تامة للنفس وهي تشمل باقي الأصوات ومعظمها يسمى اليـــوم أصواتا متصـــلة ۰ أو أصواتا احتكاكية (fricatives)

٤ـ٧ـ ويعرض في الفصل الثالث لتشريح الحنجرة واللسان فيذكر أولا مجموعة الغضاريف التي تحرك عضلات الحنجرة ثم يذكر العضلات نفسها في كثير من التفصيل الذي لا يستطيعه الا من درس الطب ومارسه ممارسة عملية۰ فيتحدث عن ست عضلات تساعد على فتح الحنجرة وعضلات أخرى تساعد على اغلاق الحنجرة وعددها يختلف عند مختلف الناس فبعض الناس له منها عضلتان وبعضهم عنده أربع ۰

وهو هنا يفصح عن الاستفادة بجهود من سبقه خاصة من الكتاب اليونانيين۰

٤ـ٨ـ ثم يُفصّل في الفصل الرابع ما أجمله في الفصل الثاني ويتحدث باستفاضة عن أصوات العربية ، ويلاحظ على هذا الوصف التفصيلي ما يلي :

أ ـ يبدأ ابن سينا في وصف أصوات العربية على النسق الذي سبقه اليه من قبله مثل ابن جني وسيبويه فبدأ بأصوات الحلق كالهمزة والهاء والعين والحاء ثم ينتهي بالفاء والباء وهما صوتيان شفويان • وحين يبدأ بأصوات الحلق يصفها وصفا تفصيليا لم يستطع المحدثون في الغرب من المتخصصين في الدراسات اللسانية ولا المحدثون من علماء العربية أن يقارنوه فهو يفرق بين العين وبين الغين والحاء من جهة كما يفرق بين العين من ناحية ثانية وبين الحاء كذلك ، وواضح ان مثل هذه التفرقة لم يستعمل فيها القياس الآلي بعد اذ لا بد من استعمال مثل هذا القياس اذا أردنا وصفا موضوعياً لمثل هذه الاصوات•

ب ـ ثم يتحدث عن الاصوات المطبقة (emphatics) فيصف تقعير اللسان حين احداثها ويذكر الاطبـاق ميزة للطاء وهو كذلك ميزة لأصوات الصـاد والظاء • ويفرد الراء في صنف وحده وهو صنف أصوات التكرير •

جـ ـ ويشير الى أصوات الغنة أو الاصوات الانفية فيبرز حقيقة هامة تغيب عن بعض المحدثين وهي ان النفس يخرج هنا من الفم والأنف معا • ذلك ان الميم والنون تحدثان بخروج النفس من الفم والانف وليس من الانف وحده• ومن هنا كان اختلاف المحدثين فيهما فمنهم من يريد اعتبارها أصواتا انفجارية لأنهما تبدآن بحبس تام ومنهم من يعتبرهما صوتين متصلين أقرب ما يكونان لأصوات الاحتكاك • والواقع أنهما يجمعان هاتين الصفتين فهما صوتان أنفيان يبدآن بحبس تـام كغيرهما من أصوات الوقف أو الانفجار ثم يزال الحبس وينطلق النفس من الانف والفم معا انطلاقا قد يطول وقد يقصر كما قد يطول وقد يقصر امتداد النفس أو استمراره في أصوات الاحتكاك أو الصفير •

د ـ ثم يعرض لأصوات الحركة في غير تفصيل ويعترف بأن أمرها كالمشاكل عليه • ولا يفرق بين الواو والياء والألف الا بأن الواو تحدث مع تضييق الشفتين • ويقول ان الحركات الصغيرة تبلغ نصف الحركات الكبيرة أو الطويلة •

هـ ـ ولقد أغفل ابن سينا التفرقة بين المهموس والمجهور وهي تفرقة أساسية عند علماء اليوم اذ أنهم يقولون أن الصوت المهموس هو مالا تصاحبه اهتزازات في الحبال الصوتية والمجهور هو ما صاحبته هذه الاهتزازات التي تتم في الحبال الصوتية وقد وصل العلماء اليوم الى قياس عدد الاهتزازات التي تتم في الحبـــال الصوتية والى وصف هـذه الحبال وصفاً دقيقاً والتفرقة بـين حجمها في الاطفال البالغين وفي الرجال والنساء وهذه التفرقة قد قال بها من سبقه مثل ابن جنّي وسيبويه ٠

٤ـ٩ـ وفي الفصل الخامس يتحدث ابن سينا عن الحروف أو الأصوات الشهية بأصوات العربية في لهجات العربية وفي الألسنة الاخرى ٠ ومن الألسنة الاخرى التي يورد فيها أمثلة الفارسية فيضيف هنا صوت الجيم في الفارسية وهو يخالف الجيم العربية بعض الاختلاف ، والشين الفارسية التـي تقـارب الزاي العربية ٠ والفاء التي تشبه الباء وهي هنا صوت احتكاك وليست صوت وقف أو انفجار وكذلك الباء المشددة في الفارسية P وهي الياء التي توجد في الألسنة الهندية والاوربية الاخرى ٠

وواضح ان هذا الباب جديد في مأخذه حين يقارن بين أصوات العربية وغيرها من الاصوات ٠ وقد التزم هنا المقارنة بالفارسية التي يعرفها ٠ وضرب مثلا واحدا على صوت من أصوات التركية ٠

٤ـ١٠ـ وفي الفصل السادس والأخير يقارن بين أصوات العربية وغيرها من الأصوات غير اللسانية فيرى اننا نسمع ما يقارب صوت العين حين يندفع الهواء بقوة الماء وصوت القاف عنـد انشقاق الاجسام الرطبة والراء عنـد تدحرج كرة صلبة على لوح من الخشب ٠

- ٥ -

ابن جنّي

٥ـ١ـ مقدمـــة :

ولد ابن جنى عام ٣٣٤ ولم يكن أبوه عربيا ، ولازم استاذه ابا علي الفارسي أربعين سنة ، وموقفه من استاذه يشبه الى حد كبير موقف سيبويه من استاذه الخليل بن أحمد • ويعتبر هؤلاء الاربعة أئمة النحو العربي منذ نشأته• ولعل في نسبتهم الى أصول عرقية ثلاثة ما يثبت البعد بين الاسلام ولسانه الاول وبين النزعات العرقية التي طرأت على المسلمين في مختلف عصورهم • فالخليل عربي وابو علي وسيبويه فارسيان وابن جنى رومي ، فاجتمع بذلك على دراسة العربية الى جانب العرب علماء من الحضارتين الفارسية والروميـة اللتـين ورثتهما حضارة الاسلام زمنا طويلا •

٥ـ٢ـ ولابن جنـى كتابان جليـلان هما : « سر صناعـة الاعراب » و « الخصائص » وهما يتناولان نحو العربية على نسق لم يسبق اليه من قبل • ومع علمه بغير العربية من الالسنة فقد عمد ألا يقارن بين هذه الالسنة وبين العربية الا في مواضع قليلة وذلك لسببين :

١ ـ كانت العربية لسان الحضارة الغالبـة وكانت العربيـة اللسـان الرسمي للاسلام موضع بحث علماء النحو ، العرب منهم وغير العرب • بل ان البحث في العربية شغلت غير العرب من المسلمين لاسباب كثيرة منها مكانها الرسمي من الاسلام وحضارته ومنها رغبة غير العرب في الاستعراب وهي رغبة نجد نظائرها

اليوم في أن كثيرا ممن كتبوا عن الانجليزية مثلا ليسوا من الانجليز • وعلى رأس هؤلاء نحـوي مثـل جسبرسزن Jespersen الدانمركي الـذي كتب عن الانجليزية ونحوها كتبا كثيرة منها كتابه عن « نحو الانجليزية » في سبع مجلدات وهو عمل لم يقم كاتب انجليزي قبله أو بعده، ومنهم Bünnar الالماني كذلك وغيرهما كثير •

ب ـ ولعل السبب الآخر هو عدم شيوع مبدأ المقارنة في ذلك العصر رغم قدرة علمائه على ذلك لان النحو المفصل الذي كتبوه قد فرغوا له انفسهم فلم يبق من وقتهم ما يشركون فيه مع نحو العربية غيره من الالسنة •

جـ ـ ولعله قد جال بخاطرهم ما يجول ببعض خواطر الغربيين من أتباع المدرسة التحويلية Transformation من ان نحو لسان بعينه قد يكشف أسرار الالسنة كلها اذا عولجت هذه الدراسة معالجة موضوعيـة عميقـة ، فيستطيع النحوي ان يعمم من اللسان الذي يدرسه الى السنة أخرى قد تشابهه وقـد تخالفه في بعض التفاصيل ولكنها تشاركه فيما تشارك فيه الالسنة من انها اشكال لمعـان يتفق عليهـا البشر • وما حديثهم اليـوم عن نحو عالمـي Universal Grammar الا محاولة لاستخلاص قواعد عامة من لسان بعينـه ينطبق عليه وعلى غيره من الالسنة •

وفي هذا يقول ابن جني في الخصائص (جزء أول ٢٤٣) •• « فان العجم العلماء بلغة العرب وان لم يكونوا علماء بلغة العجم فان قواهم في العربية تؤيد معرفتهم بالعجمية ، وتؤنسهم بها ، وتزيد في تنبيههم على أحـوالها ، لاشتراك العلوم اللغوية واشتباكها وتراميها الى الغاية الجامعة لمعانيها » •

٥ـ٣ـ كتاب « سر صناعة الاعراب » •

والكتاب يتحدث عن حروف المعجم أو حروف الهجاء أو ما يسمى الآن

أصوات العربية ويعتبر أكمل الكتب التي وصلتنا وأشملها في العربية لأن كتاب العين للخليل لم يأت كاملا كمال هذا الكتاب · ولا يتصف بشمول كتـــاب « الصناعة » ·

وقد قصد بهذا الاسم أنه يكشف اسرار تآلف الحروف أو الاصوات في العربية وقصد بالصناعة هنا مافي تآلف الاصوات من حسن وقبح وهي صناعة ليست كصناعة الكيمائيين في عصره وما قبله لانها صناعة الاعراب الذي تتصف به العربية ·

وتنقسم دراسة الاصوات العربية الى هذه الاقسام :

أ) أصوات العربية ومخارجها ·

ب) وصف تفصيلي لهذه الاصوات ·

ويعرض ابن جنى في مدخل كتـــابه لتعريف الصوت فيقـــول : « الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا ، حتـــى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنية عن امتداده وستطالته » ·

وهذا تعريف من اجمع ما قيل عن أصوات الالسنة في القديم أو الحديث ، وذلك لانه يشمل خصائص جمة لم تجتمع لغيره من التعاريف :

١ ـ **فالصوت عرض** : أي أنه عارض يخرج مع النفس وليس اساسيا لحياة الفرد كالنفس فبغير النفس لا يحيا الانسان وأما بغير الصوت فيمكن أن يحيا الانسان · وهذا يوافق ما يقول به علماء اليوم من أن الصوت الانساني يـُفرَض على النـَفـَس كعرض يوجد ثم يزول فان كان النفس جوهر الحياة الانسانية فالصوت عرض لها وهم يعبرون عن ذلك احيانا بقولهم ان الصوت الانساني مفروض على النفس superimposed

٢ ـ **والصوت مستطيل :** يتشكل بأشكال جهاز النطق في الانسان خاصة عند خروج النفس من الرئتين ويشبه ابن جنى هنا مجرى الصوت بداخل الناي يستطيل فيه الصوت حتى يخرج من فتحاته ويشبهه مرة أخرى بالعود وما يثبت فوق العود من أوتار وهو هنا جمع في التشبيهين صفات للصوت يقول بها علماء هذا العصر اذ يقولون ان الصوت الانساني يخرج من مجراه الذي يشبه مجرى الهواء في الناي ويحدث الصوت فيه عند الحبال الصوتية كما يحدث في آلة العود.

وواضح أن ابن جنى يقصد هنا الحركات في العربية وغيرها من الالسنة التي تكون في العادة مستطيلة ومتصلة .

٣ ـ **الصوت متصل :** والصوت الانساني متصل في الحركات وتشبه الساكنات أن تكون عليه نتوءات تمنعه عن الاستطالة والاتصال ولذا فان الغربيين يسمون الصوت Continuum لان الصوت يستطيع ان يتصل ما اتصل النَّفَس الانساني ، ولهذا فهم يقولون اليوم ان الوحدة النفسية هي الوحدة الحقيقية للكلام وليست الكلمة لان الوحدة النفسية يتصل فيها الصوت حتى ينتهي النفس فيتوقف النفس والصوت معا ، وما نسَميه كلمة هو في الواقع اصطلاح أخذناه من الكتابة التي نفرق فيها بين الكلمات ولم يؤخذ من واقع الصوت الانساني .

٤ ـ **الحلق والفم والشفتان :** وهي مواضع احداث الاصوات فبعض الساكنات حلقية وبعضها فمية وبعضها الآخر شفوية ، وواضح هنا ان ابن جنى اشار الى مخارج الاصوات وترك سرد اللافظات articulators الى الوصف التفصيلي لاصوات العربية .

٤ـ٥ـ أصوات العربية ومخارجها :

أ) وقد جرى ابن جنى هنا على ما جرى به العرف عند أوائل النحويين حتى اليوم من تسمية الصوت حرفا مع أن العرف السائد عند الغربيين اليوم

هو أن يسمى الحرف المكتوب حرفا أما الحرف المنطوق فيسمونه صوتا وذلك ليميزوا بين الكتابة والقراءة أو الحديث ٠

ويشرح ابن جني اسباب استعمال « حرف » لكل صوت من أصوات العربية فيقول ان كلمة (حرف) معناها حد الشيء وناحيته وبهذا نستطيع ان نطلق كلمة حرف على الصوت لان « الحرف حد منقطع الصوت وغايته وطرفه » ، ويتطرق من ذلك الى القول بأن أهـل العربيـة سموا أدوات المعاني حروفـا « نحو مِنْ ، وفي ، وقد، وهل ، وبل، وذلك لانها تأتي في أوائل الكلام وأواخره في غالب الامر ، فصارت كالحروف والحدود له » ٠

ب ـ علم الاصوات :

١ ـ لعل ابن جني أول من سمى البحث في أصوات العربية علما فيتحدث (ص ١٠) عن علم الاصوات والحروف ومشاركته للموسيقى « لما فيه من صنعة الاصوات والنغم » ٠ وهو يسوي بين الصنعة والعلم ، وعلى هذا فيمكن ان يسمى كتابه « سر علم الاعراب » ويكون الكتاب عن الاعراب وليس عن الاصوات وحدها لانه لم يقصر بحثه على الاصوات المفردة وانما تجاوز ذلك الى دراسة الصوت وما جاوره في الكلمة الواحدة ، وهذا ما يسميه علماء العصر الحالي صوتيات الصرف morphophonology ويقودنا هذا الى افتراض تسمية أخرى للكتاب يمكن أن تكون « سر علم الاصوات والصرف » ٠

٢ ـ **الصُوَيْت** : يستحدث ابن جنى هذا المصطلح ليعبر به عن ظاهرة تلحظ في أواخر بعض أصواتُ العربية حين يحاول نطق هذه الاصوات مفردة ٠ ويضرب على ذلك مثلا فيقول اننا اذا حاولنـا نطق اص٠ از٠ اف ووقفنـا عند نهاية الصاد والزاي والفاء دون ان تتبعها أصواتا أخرى فان صوتا صغيرا يحدث بعد كل واحدة من هذه الاصوات ٠ وهذا ما يسميه ابن جنى صُوَيْتاً ٠

ثم يذكر بعد ذلك (ص ٦٣) ان للاصوات فروعا مثل الف الامالة والف التفخيم لانه يعتبر هذه فروعا للالف ٠

فاذا جمعنا هذين الرايين معا جاز لنا ان نقول ان الصويت أو فرع الصوت يمكن أن يوضح رأي ابن جني في الدراسات الصوتية الدقيقة التي تدرس الصوت وفروعه ونرى أن الصوت المتمايز phoneme يمكن ان تكون له فروع يسميها الغربيون اليوم allophones أو صُوَيتّات ٠

٣ ـ الحركات والحروف :

جرى العرف عند علماء الاصوات في العربية ان تسمى الحركات اصواتا ناقصة أما أصوات الساكنات أو الحروف فهي أصوات كاملة ٠ « والحركات تقلق الحرف الذي تقترن به، وتجتذبه نحو الحروف التي هي أبعاضها، فالفتحة تجتذب الحرف نحو الألف ، والكسرة تجتذبه نحو الياء والضمة تجتذبه نحو الواو » ٠ ثم يطيل ابن جنى القول في الفرق في المرتبة بين الحركات والحروف أو الساكنات فيرى ان الحرف « أقوى » من الحركة وان الحركة تتبع الحرف ولا تسبقه ولا تحدث بعه ٠

وفي هذا يدخل في جدل طويل مع ما روي عن استاذه الفارسي وعن سيبويه اللذين يريان الحركة تسبق الحرف ، وهذا رأي سيبويه أو أن الحركة تحدث مع الحرف كما يقول الفارسي ويفيض في ذكر أسباب ما يراه من ان الحركة تتبع الحرف وتأتي بعده ولا تأتي قبله ويستشهد لذلك ، فيروي قول أستاذه الفارسي الذي يقول فيه « أن النون الساكنة اذا تحركت زالت عن الخياشيم الى الفم فدل ذلك على ان الحركة تحدث مع الحرف لا قبله ولا بعده ٠ ثم ينقض ابن جني هذا القول في كتابه الآخر الخصائص ليؤكد على ان الحركة تأتي بعد الحرف لا قبله ولا معه ٠

والرأي السائد اليوم ان الحركات تسبق الحروف أو الساكنات وتأتي معها وتحدث بعدها ولعل ذلك هو الاستنتاج الطبيعي للتعريف الذي ساقه ابن

جنى في أول كتابه حين قال ان « الصوت عرض يخرج مع النفس حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته » فكأن الصوت وأشكاله المختلفة من الحركات هو الاطار العام الذي تحدث عند مقاطعه الحروف أو الساكنات ٠

جـ ـ مخارج الاصوات العربية :

ثم يتناول بالاجمال أصوات العربية فيقسمها أنواعا كثيرة بعد ان يعرضها مجملة ويرتبها ترتيبا يختلف فيه مع من سبقاه في دراسة أصوات العربية وهما الخليل وسيبويه ٠

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩
الخليل	ع	ح	هـ	خ	غ	ق	ك	ج	ش	ض	ص	س	ز	ط	د	ت	ظ	ذ	ث	ر	ل	ن	ف	ب	م	ي	و	ا	ـ
سيبويه	ء	ا	هـ	ع	ح	غ	خ	ك	ق	ض	ج	ش	ي	ل	ر	ن	ط	د	ت	ص	ز	س	ظ	ذ	ث	ف	ب	م	و
ابن جنى	ء	ا	هـ	ع	ح	غ	خ	ق	ك	ج	ش	ي	ض	ل	ر	ن	ط	د	ت	ص	ز	س	ظ	ذ	ث	ف	ب	م	و

وبمقارنة هذا الترتيب لاصوات العربية يتضح ما يأتي :

١ ـ يتفق العلماء الثلاثة على أن أصوات الحركة الطويلة ثلاثة : ا ، و ، ي ولكن الخليل يجمعها بعد الساكنات ، وهذا منهج يتفق مع صوتيات العربيـــة ، phonemic أكثر مما يتفق معه منهج الآخرين لانهمـا لاحظـا الصفات الصوتية phonetic لهذه الحركات الطويلة ٠

٢ ـ واذا استبعدنا هذه الحركات الطويلة من مجموع أصوات العربية تبين لنا ان ترتيب ابن جنى يقترب من ترتيب سيبويه أكثر من قربه من ترتيب

الخليل • فيبدأ ابن جنى كما بدأ سيبويه بصوتي الهمزة والهاء وهما في عرف المحدثين ادنى مخرجا في الحلق من العين، ولو ان دراسة العين لا زالت في مراحلها الاولى عند علماء الاصوات من أهل العربية ومن غير أهلها •

٣ ــ ثم يكون هناك هذا التقارب في مناهج الثلاثة الخليل وسيبويه وابن جنى حين يعرضون الساكنات العربية المجهورة ثم المهموسة اللتان تلفظان من مخرج واحد وهي : ع ح ، غ خ ، ق ك • ولكن يلاحظ أن ابن جني أدق من سيبويه في هذا الترتيب اذ أنه يجعل القاف سابقة للكاف كما فعل الخليل ، وكما لم يفعل سيبويه • ولو ان المحدثين يعتبرون القاف والكاف مهموستين الا أن الترتيب هنا يوحي بأن القاف كانت مجهورة وهذا ما يقول به ابنجنى جـ ١ ص ٢٧٨ وما يقوله سيبويه (جـ ٢ ص ٤٠٥) ثم تأتي بعد ذلك الساكنات الشجرية palatal وتشمل ش ، ج ويضع الخليل وسيبويه الضاد في أول هذه المجموعة بينما يضعها ابن جنى في آخرها •

٤ ــ وتأتي بعد ذلك مجموعات كل منها من ثلاثة أصوات يبدأها ابن جنى بأصوات ل ر ن وكل منها تمثل نوعا ن الاصوات يختلف عن الآخرين فاللام منحرفة أو جانبية lateral والراء تكرارية والنون انفية ويتفق الثلاثة على ان مخرجها واحد أو متقارب • وتأتي بعد ذلك مجموعة أصوات ط د ت وهي مجموعة متقاربة أو متحدة في المخارج ولكن يميز كلا منها ان الطاء مطبقة والدال مجهورة والتاء مهموسة وهنا يتضح ان العلماء الثلاثة كانوا يعتبرون الطاء مجهورة واغلب الرأي الآن انها مهموسة وتجيء بعد ذلك مجموعة أصوات ص ز ي بنفس الترتيب ، فالصاد مفخمة أو مطبقة والزاي مجهورة والسين مهموسة وكلها تتحد عادة في المخرج ثم تأتي بعد هذه ظ ذ ث على نفس النسق فالظاء مطبقة أو مفخمة والذال مجهورة والتاء مهموسة وتتحد كذلك في المخرج أو تتقارب فيه • وتأتي أخيرا مجموعة ف ب م : وليس في الفاء اطباق

أو تفخيم ولكنها تقرب في المخرج من الباء والميم اللتان يتحدان في المخرج ولكن الباء شفوية والميم انفية ٠

٥ ـ أما الخليل فيتبع ترتيبا يختلف عن ترتيب تلميذيه اللذين جاءا بعده ، فهو يجمع مجموعة أصوات ر ل ن ولكنها تعتبر عنده متأخرة في مخرجها عن س ص ز ، ثم يتبع نهجا آخر في ترتيب ص س ز وكذلك ظ ذ ث فيبدأ بالمفخمة ثم يتبع بالمهموسة في المجموعة الاولى ويعدل عن ذلك في المجموعتين الاخريين فيسير على نفس النظام الذي تابعه عليه سيبويه وابن جنى وهما في هذه الناحية أدق في ترتيب مجموعة ص ز س ٠ ثم ينتهي ترتيب ـ الخليل بأصوات ف ب م بنفس النظام الذي ارتضاه الآخران من بعده ٠

د ـ تقسيم ابن جنى لأصوات العربية :

واعتبر ابن جنى أصوات العربيــة تسعة وعشرين صوتا وهــو يوافق سيبويه والخليل في ذلك ٠ ثم يزيد اصواتا أخرى قد توجد في بعض اللهجات وعدد هذه الاصوات الاخرى ١٤ فيكون مجموعة أصوات العربية عنده ثلاثة واربعين ومعنى هذا انه قد زاد عدد الاصوات عن سيبويه ثمانية أصوات لان عدد الاصوات الاصلية والزائدة عند سيبويه ٣٥ ٠

ويقسم بعد ذلك أصوات العربية على النحو الآتي :

١ ـ المجهور والمهموس :

وهو هنا يوافق سيبويه على التفرقة بين المجهور الذي يعلو فيه الصوت ويرجع ذلك كما يفسره المحدثون الى ان الحبال الصوتية تتردد ترددا سريعا يسري مع النفس حتى يخرج من الفم أو الأنف أو منهما معا ٠

٢ ـ الشديد والرخو والمتوسط :

ويطلق على الشديد ما يسميه علماء الغرب أصوات الوقف أو الانفجار وهي : أ ق ك ج ط د ت ب ·

والاصوات الرخوة هي أصوات الصفير أو الاحتكاك· والاصوات المتوسطة هي ما بين الرخاوة والشدة مثل العين والياء واللام ·

٣ ـ المطبق والمنفتح :

وهذا تقسيم آخر اقتضته طبيعة الاصوات في العربية فالضـاد والطاء والصاد والظاء مطبقة وأما ما عداها فليس بمطبق ، وهذا التقسيم لا زال مأخوذا به حتى اليوم وان كان بعض الغربيين يسمونه مفخمـا ومثـال ذلك Jakobson وله عدا ذلك تقسيمات أخرى أهمها ما سماه الصوت المنحرف كصوت اللام والصوت المكرر كصوت الراء والصوت المشرب كأصوات القلقلة وهي : ق ط ب ج د ·

٥ـ٥ـ الوصف التفصيلي للاصوات :

ثم يعرض ابن جني لشرح تفصيلي لأصوات العربية ، فيتناول كل صوت بوصف صفاته ان كان مهموسا أو مجهورا وعن موقعه في الكلمة ان كان في أولها أو وسطها أو آخرها · وحتى هنا فالوصف وصف صوتي يتفق مع ما درج عليـــه المحدثون من وصف لمخارج الصوت ثم وصف لتوزعه Distribution في الكلمة الواحدة في احدى هذه المواقع الثلاثة ·

ولكن ابن جني لا يقتصر على ذلك بل يدخل في باب الصرف ويبين اذا ما كان الصوت بدلا من صوت آخر أو زيادة في الكلمة · ولهذا فان الكتاب لا يعتبر كتابا في أصوات العربية ولكنه تخطى ذلك الى باب الصرف أو صوتيات

الصرف كما يسمونها morphophonemics ويعرض في أثناء ذلك لكثير من اوجه الصرف والاستشهاد بآيات من القرآن الكريم والشعر ، وهو نفس المسلك الذي جرى عليه من سبقوه ولكنه مسلك منظم هنا مفصل أجمل تفصيل وهذا مالا يتسع له هنا المجال ٠

٥ـ٦ـ كتاب الخصائص :

١ ـ يبدأ ابن جني كتابه بأن يفرق بين الكلام والقول فيقول ان الكلام هو القول التام المستقل بنفسه ، وأما القول فقد يكون غير تام أو تاماً ، وهي هنا تفرقة اصطلاحية لانه لم يدخل في هذه التعاريف كلمة « حديث » ولعله لو كان تناولها بالبحث لأخذت مكان القول في تعريفه لأن القول أهم من الكلام والحديث ٠ فالكلام أعلى مرتبة من الحديث لأن قول الله تعالى كلام وقول البشر حديث ولأن الخالق جل وعلا والمخلوقين جميعاً يقولون حتى الدواب تقول بلسانها قولا لا يعرفه البشر الا من علم منطق الطير أو النمل وغيرها من الدواب ٠ أما الدابة التي سوف تخرج للناس فهي تتكلم بأمر الله كلاماً يفهمه عنها الناس ٠

وهذه التفرقة بين الكلام والقول أو الكلام والحديث شبيهة بتفرقة de saussure بين : langue و parôle فالكلام عند سوسير تام والحديث غير تام والكلام هو ما تنطق به الجماعة والحديث ما يتلفظ به الفرد ٠

ثم يسلك ابن جني مسلكاً في التفرقة بين : كلم وقول ، يعتبر من أحدث ما تواضع عليه النحويون المعاصرون وهو توزع الاصوات الثلاثة الساكنة في كلم وفي قول والصيغ المختلفة الموجودة في العربية التي تأتي فيها هذه الأصوات في المواقع الثلاثة من الكلمة فيرى أن العربية تحوي قول : قلو ، وقل ، ولق ، لوق ، لقو وهي الصيغ الستة المحتملة في الأماكن الثلاثة من الكلمة وفي أولها

ووسطها ونهايتها ولا يجد الا خمس صيغ لكلم فأهمل منها « ل م ك ، فلم تأت في ثبت » ٠

وما دام عنوان الكتاب « الخصائص » أو خصائص العربية فان ابن جني لا يهمـل دراسة أصوات العربية ولو أن الكتاب في جملتـه يصف الخصائص الصرفية والنحوية للعربية فيتحدث في الجزء الثالث (ص ١٢٠) عن كمية الحركات ٠ فيرى أن الحركات في العربية عند غيره ثلاث وهي الضمة والكسرة والفتحة ، أما عنده هو فهي ست ، فيضيف الى الثلاث المعروفة ثلاث حركات وذلك أن بين كل حركتين حركة ٠ فالتي بين الفتحة والكسرة هي الفتحة قبل الألف الممالة ، نحو فتحة عين عالم ، وكاف كاتب ٠ فهـــذه حركة بـين الفتحة والكسرة ، كما أن الألف التي بعدها بين الألف والياء ، والتي بين الفتحـــة والضمة هي التي قبل ألف التفخيم ، نحو فتحة لام الصلاة والحياة والتي بين الكسرة والضمة ككسرة قاف قيل فهذه الكسرة المشمة ضماً ٠ ومثلها الضمة المشمة كسراً كضمة قاف العُنْقَر وضمة عين مذعور ٠٠ لكن ليس في كلامهم ضمة مشربة فتحة فاعرف ذلك ٠ ويدل على أن هذه الحركات معتدات اعتداد سيبويه بألف الامالة وألف التفخيم ٠٠٠ »

واذا صح أن هذه الاصوات (أو الصوتيات كما سماها في كتاب سر الصناعة) هي أصوات متغيرة للحركات الثلاثة الأساسية في لهجة واحدة من لهجات العرب وهي الفتحة والضمة والكسرة فان هذه الصوتيات تسمى فروعاً لهذه الحركات الرئيسية أو ما يسمونها في اللسانيات الحديثة allophones أو صوتيات كما أشار اليها ابن جني من قبل ٠

أما اذا كانت هذه الصوتيات لا تجتمع في لهجة واحدة وانما تجتمع في لهجات كثيرة فان ذلك يقرب مما يسميــه Tones بالاصوات الازدواجيـــة diaphones وهي التي توجد في بعض اللهجات دون البعض ٠

جـ ـ ويورد ابن جني في الجزء الأول (ص ٤٠) بعض الأقوال عن أصل اللسان أإلهام هو أم اصطلاح والخلاف في هذا قديم وقد لجأ بعض علماء الألسنة المحدثين الى التوقف عن الخوض فيه واغلاق بابه لأن القطع فيه بأمر ثابت بعيد المنال ، ولكن المدرسة الجديدة في التحويل من أتباع تشومسكي أعادت الالتفات الى أصل اللسان مؤكدة أنه إلهام وليس اصطلاحاً ، وذلك لأنها تؤمن بأن الابداع في اللسان ـ واللسان كله ابداع عندها ـ يثبت أن اللسان إلهام وليس اصطلاحاً • ونرى ابن جني هنا حائراً بين القول بالالهام والاصطلاح ، فمرة يقول بالاصطلاح خاصة حين يعرض في ايجاز لبعض الألسنة الأجنبية ولكنه يعود للقول بالالهام حين يقصر حديثه على العربية •

د ـ ويتحدث عن اللهجات العربية في مواضع كثيرة من كتابه ولا يسميها لهجات العرب انما يسميها لغات العرب ويورد عن هذه اللهجات بعض خصائصها التي تختلف بها عن غيرها (جـ ٢ ص ١١) ، ويضرب مثلا على عنعنة تميم ابدال الهمزة عينا حين يقولون عن بدلا من أن ، وأما تلتلة بهراء فهي كسر أوائل مثل هذه الكلمات تعلمون وتفعلون ، وأما كشكشة ربيعة فهي قولهم انكِتن ، بدلا من انّك ، رأيتكش بدلا من رأيتُكِ واما كسكسة هوازن فقولهم اعطيتكِس وانكِس بدلا من أعطيتكِ وانكِ ويتحدث ابن جني عن تضجع قيس وعمر فيه صبة ولا يورد أمثلة عليها •

وهذه اللهجات موجودة كما هو معروف في اللهجات العربية الحديثة فالعنعنة وهي ابدال الحاء عينا موجودة في بعض قرى الوجه البحري في مصر والكشكشة موجودة في بعض قرى نجد والعراق ومصر وغيرها من بلاد العروبة ، ولكنها كشكشة مختلفة عما اورده ابن جنى ونجدها في قولهم تشلب بدلا من كلب وكذلك الكسكسة في قولهم تسلب بدلا من كلب كذلك • وهذا مجال خصب للدراسات اللسانية أرجو أن تتوفر عليه الجهود أكثر مما توفر له حتى الآن •

ويورد مبدأ هاما من مبادىء التحليل الوصفي للألسنة حين يتحدث عن المتحرك والساكن في الكلام (جـ ٢ ص ٣٢٨) فيقول ان الكلمة وحدها لا تكون مفيدة بذاتها ، انما تكون الكلمة مفيدة اذا كانت في جملة • ويرى ان النظر الى نوع الحركة في الكلمة ينبغي ان يبنى على أساس وجود الكلمة في جملة لا على الكلمة المفردة •

ويفرد الكلام على ما دخل في كلام العرب من الكلمات الاجنبية فيعتبر هذه الكلمات الاعجمية عربية ما دامت قد سرت عليها احكام الاعراب في العربية وهذا موقف سليم تؤيده بعض الآراء الحديثة التي ترى ان كل كلام اجنبي دخل على لسان بعينه فهو منه خاصة اذا كانت الكلمة الدخيلة قد سرت عليها القواعد الصوتية والصرفية والنحوية في اللسان الذي دخلته •

هـ ـ ولا يفتأ ابن جني في كتابه كله (وهو موسوعة نحوية لا نظير لها في شمولها ووضوحها) يشيد بلسان العرب ويحكي ما يراه فيه من جمال ودقة لا تتأتيان لغيره من الالسنة • وهو حين يدفع عن نفسه وعن استاذه الفارسي تهمة النسب غير العربي يوضح أصلا من الاصول اللسانية السليمة وهي ان علوم الالسنة كلها تشترك في انها تهدف الى البصر بهـــذه الظاهرة الانسانية اللسانية الفذة فيقول (جـ ١ ص ٢٤٣) فان العجم العلماء بلغة العرب وان لم يكونوا علماء بلغة العجم فان قواهم في العربية تؤيد معرفتهم بالعجمية ، وتؤنسهم بها ، وتزيد في تنبيههم على أحوالها ، لاشتراك العلوم اللغوية واشتباكها وترامبها الى الغاية الجامعة لمعانيها » •

- ٦ -
سِيبَوَيْه

٦ـ١ـ مقدمـة :

لسيبويه كتاب في نحو العربية سمي كتاب سيبويه ويكاد ان يجمع نحاة العربية على أن يسموه « الكتاب » لانه أول كتاب تنـاول العربية في نحوهـا وصرفها وأصواتها تناولا مفصلا لم يتح لاحد قبله ، لان الخليل استاذ سيبويه لم يترك لنا التاريخ مما كتب الا النزر اليسير الذي لا يجارى في تفصيله وشموله ما كتبه تلميذه سيبويه ٠

ويكاد يكون مكان سيبويه في نحـو العربية هو مـكان بانينـي Panini في نحو الهندية القديمة ومكان دي سوسير de Saussure في النحو المعاصر لأن كلا من الثلاثة رائد في زمانه ، ولا يعني ذلك أن بانيني هو أول من كتب في نحو السنسكرتية أو الهندية القديمة أو أن دي سوسير أول من كتب في النحو المعاصر ولكن لكل من هؤلاء سمات الريادة التي لا يشاركه فيها غيره من النحاة ٠ ولقد سُمّي بانيني هوميروس النحو قياساً علىامام الشعر اليونانيهوميروس٠ وقد وصفت كتابات سوسير بأنها نبع يرد اليه كل من كتب في النحو المعاصر ممن جاء بعده ٠ وسيبويه يجمع هذين الوصفين فهو رائد في ميدان لم يطرق من قبل بمثل هذا الشمول وهذه الدقة وكتابه في النحو لا زال موردا يرده الظمأى والحيارى ممن شغفوا بالعربية وسحر نحوها وصرفها وأصواتها ٠

٦ـ٢ـ ونستطيع ان نتتبع كتاب سيبويه عن النحو العربي على النسق الذي أورده مؤلفه ، اذ أنه يبدأ بالنحو ثم يعرض للصرف وينهي الجزء الثاني من الكتاب بوصف أصوات العربية ، ولئن صح أن سيبويه أقدم الوصافين لنحو العربية ممن وصلتنا مؤلفاتهم كاملة ، فانه لم يهمل المعنى كما ذهبت اليه بعض المدارس الوصفية الحديثة • ولم يهمل ربط المعنى بالشكل ، [illegible] ذلك يبدأ بالشكل ولا يترك الشكل ليغرق في تقصي المعنى وحده •

وهو يقسم المعنى في العربية ، أقساما خمسة :

أ ــ **مستقيم حسن** : مثل اتيتك امس ، سآتيك غدا •

ب ــ **المحــال** : اتيتك غدا ، وسآتيك أمس •

جـ ــ **المستقيم الكذب** : حملت الجبل ، شربت ماء البحر •

د ــ **المستقيم القبيح** : قد زيدا رأيت •

و ــ **المحال الكذب** : سوف اشرب ماء البحر أمس •

وكان من الممكن ان يضاف الى هذه المعاني **المحال القبيح** مثل أمس سآتيك ولكن سيبويه لم يكن يهتم بتحليل المعنى قدر اهتمامه بتحليل الشكل ، وهذا هو منهجه اللساني الذي لا زال منهج الوصافين البارزين منذ القديم حتى اليوم •

٦ـ٣ـ اللسان والمعنى :

ثم يمايز بين اللفظ والمعنى فيورد أمثلة ثلاثة على اختلاف اللفظ والمعنى واتفاقهما :

أ ــ **اختلاف اللفظ والمعنى** : ذهب ، جاء •

ب ــ **اختلاف اللفظين والمعنى واحد** : ذهب وانطلق •

جـ ــ **اتفاق اللفظين واختلاف المعنى** : وَجَدت ــ وَجِدت (جـ١ ص٨) •

اما عن اختلاف اللفظين والمعنى واحد فهو ما يعرفه المعاصرون بالمترادفات وان اختلفوا في مدى الاتفاق في المعنى وهل هو اتفاق كامل أم أنه اتفاق جزئي • فالمترادفات قد لا تتفق تمام الاتفاق في المعنى فنجد مثلا في الانجليزية بعض الكلمات تتفق في المعنى ولكن هذا الاتفاق لا يصل مرتبة التطابق أو الاتفاق الكامل • فمثلا كلمة inevitable وكلمة unaveidable تتفقان في المعنى ولكنهما تختلفان من ناحية أصلهما التاريخي وفي المعاني المصاحبة التي تأتي مع المعنى الاصلي • ولهذا ذهب بعضهم الى ان الترادف الكامل لا وجود له في الالسنة وأن كل ترادف لا بد أن يكون ناقصا وان استعصى علينا اثبات ذلك فمرجع هذا الى اختلاف تاريخي بين المترادفين غابت عنا ظروفه أو اختلاف لهجي حوته المعاجم ولم توضح لنا أصوله •

ولعلنا ان حاولنا أن نجد مثلا من العربية في هذه الكلمات المتقاربة التي جاءت بها السنة عن الدية **كالمخاض واللبون والحقاق والجذاع** لاتضح لنا تقاربها جميعا في انها أنواع من الابل ، ولولا ان السنة حفظت لنا هذه الفوارق الدقيقة بينها لبدا أن التقارب بينها يبرر لنا اعتبارها مترادفات تتفق في المعنى اتفاقا يكاد ان يكون كاملا •

واتفاق اللفظين واختلاف المعنى كما أورده سيبويه في وَجَد ووَجِد هو في الحقيقة اتفاق في الساكنات ولكن هذا الاتفاق يصاحبه اختلاف في الحركات فواضح أن الحركة التي تأتي بعد الجيم في وَجَد هي الفتحة اما الحركة التي تأتي الجيم في وَجِد فهي الكسرة • والفتحة والكسرة مختلفتان ولذلك فان اتفاق اللفظين هنا اتفاق غير كامل لأن اتفاق الساكنات لا يصاحبه اتفاق في الحركات وهذا الاتفاق في اللفظ مع اختلاف المعنى نراه مثلا في كلمة لسان وهو هذا العضو بداخل الفم الذي نستعمله في المضغ والكلام **واللسان** كذلك هذه الأصوات المنتظمة التي تستعمل في التعبير عن الافكار والرغبات • وكذلك

في الانجليزية مثلا كلمة Table تعني منضدة ولكنها كذلك قد تعني جدولا زمنيا او أرضا مستوية ومثل ذلك في غير العربية والانجليزية من الألسنة ٠

اما اختلاف اللفظ والمعنى فهو الأساس الأول لتحليل الالسنة في القديم والحديث اذ أن اللسان مجموعة من الأصوات ترتبط بمعان ويستطيع الناطق بلسان معين أن يستبين وسط هذه السلسلة من الأصوات أصواتا متشابهة لها نفس المعنى وأصواتا مختلفة تختلف في المعنى ٠ والفرق بين سماعنا لأصوات لسان نعرفه ولسان لا نعرفه أن أصوات اللسان الذي نعرفه تتمايز فيما بينها فيتشابه بعضها ويختلف بعضها الآخر كما اننا نربط بين هذه الاصوات المختلفة والمتشابهة وبين معانيها ٠ اما اذا استمعنا لأصوات لسان لا نعرفه فانا قد ندرك بعض ما تشابه من أصوات هذا اللسان وما اختلف منها ولكننا لا ندرك الارتباط بين هذه الاصوات وبين معانيها ٠

واشارة سيبويه هنا الى اختلاف اللفظ والمعنى تشير الى ما تعارف عليه المعاصرون من أن التشابه والاختلاف في أصوات لسان ما تتوارد Recur بصفة دائمة وعلى نظام معين ٠ وهذا النظام الذي تأتي عليه هذه الاصوات المختلفة والمتشابهة هو الذي يحدد ملامح كل لسان بعينه ويفرق بينه وبين غيره من الالسنة ٠ ولقد سمى المعاصرون هذا النظام arrangement وجعلوه قاعدة هامة في تحليل الألسنة ووصفها ٠

٥ـ٤ـ اللسان والمنطق :

ويتحدث سيبويه هنا عن المسند والمسند اليه وهما اصطلاحان دخلا الدراسات اللسانية من المنطق والفكر اليوناني وأصبحا جزءا من التراث اللساني لدارسي العربية وغيرها من الالسنة ٠

ويقصد بالمنطق هنا هذا المنهج الفكري الذي ورثه العرب عن اليونان ولا يقصد به التلفظ أو اللسان على المعنى الذي ورد في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى على لسان سليمان « علمنا **منطق** الطير » (النمل ـ ١٦) ويورد تحت هذا العنوان مختلف الجمل في العربية من الجمل الاسمية التي تبدأ بمبتدأ مثل : **هذا اخوك** والجمل الفعلية مثل · **يذهب اخوك** · ويلحق بالجملة الاسمية الجمل التي تبدأ بكان وان مثل : **كان الرجل منطلقا ، وان الرجل منطلق** · ثم يتبع ذلك بأمثلة أخرى مثل : **رأيت الرجل منطلقا ومررت بالرجل منطلقا** ويلحق هذا بالجمل الاسمية ، لأن الاسم فيها جميعا اما مرفوع أو منصوب أو مجرور ·

وتثير هذه الاشارة اليسيرة من سيبويه قضيتين هامتين :

القضية الاولى : ما دام المبتدأ اسما والمبتدأ يسبق الخبر سواء كان هذا الخبر اسما أو فعلا فذلك يثبت اسبقية الاسم على الفعل في العربية · ولسيبويه أسباب أخرى لأسبقية الاسم على الفعل منها ان الافعال أثقل من الاسماء ، ومنها أن الفعل لا بد له من الاسم والاسم قد يستغني عن الفعل في المثل السابق: **هذا أخوك** · وقضية اسبقية الاسم على الفعل تعتبر اليوم من القضايا المنطقية أكثر مما هي من صميم الوصف اللساني ·

القضية الثانية: ويعرض سيبويه هنا الجمل الاساسية في العربية في ايجاز اخاذ فمن مثل هذه الجمل الاساسية kernel sentences يمكن ان تكون جمل أكثر طولا وأشد تعقيدا كما فصل في كتابه (الجزء الاول) ولهذه الجمل الاساسية أهميتها في استخلاص نحو مبسط من كتاب سيبويه يضم التراكيب الاساسية للعربية بغير اسراف في التفصيل وفي ذلك فائدة كبرى اذا أردنا تبسيط النحو للناشئة الصغار الذين يتعلمون العربية وهم من ابنائها ، وللناشئة وغير الناشئة من غير ابناء العربية الذين يهتمون بدراسة العربية في نحوها وآدابها وتهوى افئدتهم الى حضارة الاسلام ·

ويحسن بنا ان نجتزىء من العرض المفصل في الكتاب ثلاثة قضايا هي اقسام الكلام ، الاعراب والأصوات ٠

٥ـ٥ـ اقسام الكلام :

يقسم سيبويه الكلام في العربية تقسيما وصفيا الى اسم وفعل وحرف على النحو التالي .

الاسم		الفعل			الحرف
اسم	حدث	ماض	لم يقع	لم ينقطع	لمعنى وليس باسم ولا فعل
رجل	ضرب	ذهب	اقتل	يذهب تذهب	ثم
حائط	حمد	حمد	اذهب	يقتل	سوف
				يقتل	ل ـ و

أ) وهذا التقسيم الوصفي الدقيق يأخذ من شكل الكلمات منهجا يسير عليه . فلقد قسم الاسماء قسمين الاسماء التي تدل على اشخاص أو أشياء مثل رجل وحائط والاسماء التي تدل على احداث مثل ضرب وحمد ٠ واذا كان حقا قد استعمل المعنى في التفريق بين هذين الصنفين من الاسماء الا ان الشكل فيما أورد من أمثلة لا زال مختلفا ، فالقسم الثاني هو عادة ما تسميه المصدر أما القسم الاول فهو لا زال اسماء المسميات ٠ ولئن قيل ان اسماء هذه الاحداث أخذت من الافعال ، ، فذلك ما لا يتفق مع منهج سيبويه الذي يرى أن الاسماء تسبق الصفات وتسبق الأفعال ، فالأفعال عنده أخذت من لفظ احداث الاسماء (جـ ١ ص ٢) ٠

ثم نراه يقسم الافعال اقساما ثلاثة أولها الفعل الماضي مثل ذَهَبَ في صيغة المعلوم وحُمِدَ في صيغة المجهول . اما القسم الثاني من الافعال فهو صيغ افعال لم تقع وهو ما نعبر عنه عادة بفعل الأمر والقسم الثالث من الافعال هي الافعال التي لم تنقطع وهي التي تبدأ بالزوائد الاربع : الهمزة والتاء والياء والنون ، مثل يَذْهَبُ في صيغة المعلوم ويُذْهَبُ في صيغة المجهول. وقد نعبر عن هذه الصيغة من الفعل بأفعال المضارعة في بعض كتب النحو للناشئة اليوم ، وهذا استعمال غير دقيق خصوصا اذا خلطنا بين الصيغة والزمن وافترضنا ان الفعل المضارع يدل على الزمن الحاضر .

ولقد فسر السيرافي هذا الاستعمال تفسيرا مقبولا حين قال على حاشية سيبويه (جـ ١ ص ٤) ان الافعال تنقسم من ناحية مضارعها للاسم ثلاثة اقسام:

أ ـ مضارع تام : مثل اكتب ، تكتب ..

ب ـ مضارع ناقص : مثل كتب ، ذهب .

جـ ـ غير مضارع : مثل اكتب ، اذهب .

لكن استعمال المضارعة هنا يختلف عنه عند سيبويه لأن الافعال عنده قد تضارع الاسماء وفي هذه الحالة تسمى **افعال المضارعة** ، والاسماء قد تضارع الافعال فيمكن ان يسميها حينئذ **أسماء المضارعة** مثل ابيض وأحمر وأسود حين تكون مفتوحة في موضع الجر .

وقد جرى العرف النحوي في الغرب على ان يقسموا الفعل في الالسنة السامية (والعربية احداها) قسمين اساسيين : تام وغير تام imperfective perfective وهذا تقسيم زمني يحاول ربط زمن معين بشكل معين فالتام هو الماضي وغير التام هو مالا يدل على زمن بعينه وقد يدل على الزمن الحاضر ، ويدخل هذا التقسيم صيغة الفعل في المستقبل على انها

صيغة فريدة يزاد لها السين أو سوف لتعبر عن الزمن المستقبل مثـل **سيكتب وسوف يكتب** • وواضح ان هذا العرف الغربي لنحو الالسنة السامية لا يدخل في الحساب هنا فعل الامر في العربية اذ أنه يعتبره فعلاً فريداً في أوله بالسابقة ، أ ، إ في افعال الأمر مثل : أكتب ، إذهب ••

أما الحرف فيفرد له سيبويه قسما خاصا من أقسام الكلام ، وهو قسم يشمل لام الاضافة واو القسم وهي حروف مفردة أي أن كلا منها صوت واحد ساكن يتبعه حركة الفتحة في و وحركة الكسرة في ل • ويشمل قسم الحرف عند سيبويه كذلك كلمات مثل : **ثم وسوف** •

ب) واذا جاز لنا ان نقارن بين منهج سيبويه في تقسيم الكلام ومنهج غيره من أصحاب الالسنة الاخرى ، وجدنا ان هناك منهجين آخرين يشبه كـل منهما منهج سيبويه من وجوه ويخالفه من وجوه أخرى :

١ ــ فالمنهج الهندي لا يعترف الا بقسمين اساسيين للكلام يمكن ان نسمي احدهما **أسما** والآخر **فعلا** • ولا تقوم التفرقة بين هذين القسمين الا على اساس الزوائد التي تلحق بكل منهما • فهناك زوائد خاصة تأتي مع الفعل وزوائد أخرى تأتي مع الاسم •

٢ ــ أما المنهج الغربي فانه قد بدأ بداية تقترب من المنهج الهندي والمنهج العربي حين فرق افلاطون وارسطو بين الاسم والفعل • ولكن المنهج الغربي تطور على ايدي نحويين كثيرين من الرومان اضافوا الى الاقسام القديمة اقساما جديدة شملت فيما شملت الصفة والظرف واسم الفاعل ولهذا فانا نرى ان معظم الالسنة الغربية اليوم تقسم الكلام ثمانية اقسام تبدأ بالاسم وتنتهي بالحرف أو بحروف التعجب • بل ان المحدثين انفسهم لم يروا بأسا اليوم من ان يلتزموا هذا التقسيم للكلام في كتاباتهم المعاصرة فنرى بلومفيلد **Bloomfield**

يرى ان تقسيم الكلام في الانجليزية لا ينبغي ان يشمل أقل من اقسام اربعة هي الاسم والفعل والصفة والظرف • وممن تابع القدماء في تقسيماتهم المتعددة للكلام المدرسة التحويلية الجديدة وعلى رأسهم تشومسكي Chomsky الذي أخذ عن القدماء هذا التقسيم الثماني بكلياته تقريبا •

وواضح هنا ان تقسيم الكلام عند سيبويه يقرب كثيرا من منهج الهنود القدماء كما انه أقرب الى منهج ارسطو منه الى منهج المحدثين ، ذلك ان الاقدمين جميعا قسموا الكلام قسمين أو ثلاثة على اساس أن هذه هي الاقسام الكبرى وقد تندرج تحتها اقسام فرعية أخرى • بل أن سيبويه نفسه ذكر الصفة في العربية كقسم آخر غير الاقسام الثلاثة التي أوردها في أول كتابه ولهذا فتعتبر الصفة قسما جزئيا قد يدخل القسم العام الذي سماه « الاسم » ، كما يعتبر الظرف قسما جزئيا من الاسم كذلك (حـ ١ ص ٢٠١) •

والتقسيم القديم سواء عند الهنود أو ارسطو أو سيبويه قد يفضل التقسيم الحديث من وجوه أهمها الشمول فهذه الاقسام العامة تندرج تحتها اقسام فرعية قد يختلف النحاة في عددها تبعاً لتنوع الفكر بين النحويين وتبعاً لتنوع الفكر الانساني على مر الازمنة • ومنها ان التقسيم الى أكثر من ثلاثة أقسام أدى الى كثير من التناقض فنرى مثلا ان اقسام الكلام الثمانية في الغرب تطورت وتغيرت كثيرا عبر تاريخها فكانت تشمل مثلا في أول الامر قسما اسموه اسم المفاعل present participle منفصل عن الاسم ، كما انها لم تكن تشمل الصفة adjective ثم تطورت فظهر فيها الظرف adverb ولم يكن موجودا من قبل • بل ان بعض المحدثين مثل جسبرسن Jespersen يحبذ العودة بأقسام الكلام في الانجليزية الى اربعة هي : الاسم، الفعل والصفة والحروف Particles ، وواضح ان هذا التقسيم أكثر شبها بالتقسيمات القديمة منه الى التقسيمات الحديثة •

٥ـ٦ـ الاعراب والبنـاء :

ونحو العربية على طول تاريخها يشمل عنصرا اساسيا لا بد ان يستغرق بعض الوصافين وهو شكل أواخر الكلمات ، والعربية من هذا الوجـه تشبـه اللاتينية في أن أواخر الكلمات هي التي تحدد شكل الموقـع الاعرابي للكلمـة والجملة أكثر مما يحدده موقع الكلمة في الجملة • ولذلك فقد قسم علماء النحو المحدثين الالسنة قسمين :

أ ـ قسم يقوم الوصف النحوي فيه على وصف أواخر الكلمات •

ب ـ قسم يقوم الوصف النحوي فيه على وصف مواقع الكلمات •

والعربية تقع في القسم الاول أما بعض الالسنة الحديثة كالانجليزية مثلا فتقع في القسم الثاني • ولا يغفل سيبويه موقع الكلمة في الجملة العربية فيقول : « لو وضعت الفعل موضع الاسم لم يجز ذلك ، فلو قلت : ان يضرب يأتينا » واشباه ذلك لم يكن كلاما » •

وما استعمال سيبويه لاصطلاح المضارعة الا تأكيدا لأهمية موقع الكلمة في العربية ، فالفعل المضارع عنده هو ما ضارع اسم الفاعل في الموقع فمثلا : ان عبد الله لـَيفـْعَل = ان عبد الله لـَفـَاعِل" •• فـَضـَار َعَ الفعل يـَفعَل اسم الفاعل فـَاعِل" لامكان احلال أيهما مكان الآخر دون تغير في المعنى • ومع ذلك فالجزء الاكبر من نحو العربية عند كثير من المعاصرين ينحصر في أواخر الكلمات•

ولقد قسم سيبويه الكلمات الى معرب ومبنى ، ورأى ان هذين القسمين يشملان كل أقسام الكلام ، فالاسماء المتمكنة والافعال المضارعة معربة أما الاسماء غير المتمكنة والافعال غير المضارعة والحروف فهي مبنية على الوجه التالي :

أ ـ المعرب (حروف الاعراب)

حروف الاعراب	النصب	الجر	الرفع	الجزم
١ ـ الأسماء المتمكنة	رأيت زيداً	مررت بزيد	هذا زيد	ـ
٢ ـ الأفعال المضارعة لأسماء الفاعلين	لن يفعل	ـ	يذهب سيفعل	لم يفعل

ب ـ المبني

علامات البناء	الفتح	الكسر	الضم	الوقف
١ ـ الاسماء غير المتمكنة	كيف	أولاء	حيث	من، كم
	أين	حذارِ	قبـل	إذ
٢ ـ الافعال غير المضارعة	ضرب	ـ	ـ	أضربه
٣ ـ الحروف	سوف ثم	بزيد لزيد	منـذ	قدْ، من هـلْ

وهذا التقسيم الى مبنى ومعرب يكمل التقسيم الاول للكلام الى اسم وفعل وحرف ويقويه من نواح كثيرة :

١ ـ **فالاسم** : هو الطرف الاول في هذا التقسيم ويختلف عن غـيره من اقسام الكلام في ان التنوين يلحقه عادة في النصب والجر والرفع ولا يلحق التنوين أقسام الكلام الباقية ، والتنوين ساكن في حالة المفرد النكرة ويزول اذا دخل عليه التعريف :

ولداً ولدٌ ولدٍ

الولدَ الولدُ الولدِ

والتنوين حركته الكسر في المثنى : ولدانِ وحركتــه الفتح في الجمـــع : المسلمونَ ٠

٢ ـ الحرف : وهو ما يبنى على الفتح والكسر والضم والوقف دائما مثل : سوفَ ، بِزيد ، منذُ ، قدْ ٠

٣ ـ الفعل : وهو قسم بين الاسم والحرف فتارة يكون معربا ويضارع الاسم في هذه الحالة وتارة يكون مبنيا كما هو الحال في الفعل الماضي والامر ٠ وهناك طائفة من الاسماء الحقها سيبويه بالافعال لانها تارة تبنى اذا كانت غير متمكنة مثل : قبلُ وتارة لا تبنى مثل : مِنْ قَبلِ ذلك ٠

٦ـ٧ـ الأصوات :

١ ـ وقبل ان يتكلم سيبويه عن الاصوات يتنـاول بالتحليل والوصف المفصلين صيغ الاسم والفعل وهي ماتسمى اليوم باسم الصرف فيتحدث عن صرف الاسم وصيغ التصغير وجمع التكسير وبناء الافعـال على صيغها المختلفة وفي عرضه لصيغ الجمع المتكسر يجمع بينهما جمعا محيطا ٠ ولو أن صيغه تكاد تنحصر في تغيير حركة المفرد او حركتيه او حركاته او تتم عن زيـادة الف او واو قبل المفرد او في وسطـه الا ان هذه الصيغ تكـــاد تستعصي علىَ التبويب الجامع الدقيق حتى اليوم ٠ وقبل ان يـأتي على وصف اصوات العربية يقـدم لذلك بدراسة الادغام او المجانسة الصوتية Assimilation وهو بهذا منطقي في ترتيبه اذ يبدأ بالنحو Syntax ثم يبدأ في الصرف Morphology بعد الصفحـات المائة الاول من الجزء الثاني ، ويتناول الادغـام بعد ذلك وهـــو مايسميه المعاصرون اليوم Morphophono Logy ويختتم الجزء الثاني بوصف اصوات العربية ، phonology

ب ـ يصنف سيبويه اصوات العربية على الوجه التالي :

موضع الصوت / نوع الصوت		شفوي	شفوي أسناني	بين الأسنان	أسناني	لثوي	قبل الحنكي	حنكي	أعلى الحنك	لهوي	حلقي (اللسان المزمار)	مزماري
أصوات الوقف	مهموس				ت				ك			
	مجهور	ب			د			ج				
	مطبق مهموس											
	مطبق مجهور				(ط)		ض			(ق)		
أصوات الاحتكاك	مهموس		ف	ث		س		ش		خ	ح	هـ
	مجهور			ذ		ز				غ	ع	ء
	مطبق مهموس											
	مطبق مجهور			ظ		ص						
الاصوات الأنفية		م				ن						
الاصوات (الجانبية) المنحرفة						ل						
أصوات التردد						ر						
انصاف الحركات		و						ى				(ا)

وفي هذا التصنيف بعض التبسيط لما ذهب اليه سيبويه حين وصف أصوات العربية وأهم وجوه هذا التبسيط ما يأتي :

١ ـ **المخارج** : وقد قسم سيبويه مخارج العربية ستة عشر مخرجا ادمج بعضها هنا في بعض حتى صارت احد عشر ٠ ولقد قسم سيبويه الحلق ثلاثة أقسام : الحلق الاقصى والحلق الاوسط والحلق الادنى فوضح **الهمزة والهاء والألف** من أقصى الحلق ومن أوسط الحلق **العين والحاء** ومن أدنى الحلق **الغين والخاء** فسمى أقصى الحلق هنا المزمار وسمى اوسط الحلق **الحلق** أو **لسان المزمار** وسمى ادنى الحلق اللهوى نسبة الى اللهاة ٠

وتشترك الاسنان في اخراج بقية الاصوات غير الشفوية ، ولكن اكتفى منها هنا بأربعة هي اللثوية والاسنانية وما بين الاسنان والشفوية الاسنانية ٠ كما ان سيبويه اعتبر الانف مخرجا فجعله المخرج السادس عشر ٠

ويميل علماء الاصوات المعاصرون الى تقسيم الاصوات على محورين رئيسيين أولهما محور موضع الصوت أو المخرج كما سماه سيبويه ، اما المحور الثاني فهو نوع الصوت وهل هو شديد أو وقفي ورخو أو احتكاكي ٠

٢ ـ **نوع الصوت** : قسم سيبويه بعد ذلك أصوات العربية قسمين :

أ) **شديد** أو ما يسميه العلماء الاوربيون plosives أي أصوات الانفجار وما يسميه الامريكيون أصوات الوقف stops .

ب) **رخو** وهو ما يسميه الغربيون الآن أصوات الاحتكاك fricatives .

جـ) والقسم الثالث الرئيسي من أنواع الصوت هو **الصوت الانفي** وان كان سيبويه اعتبر الانف مخرجا ولم يفرق بين نوع الصوت الانفي وغيره من الاصوات الفمية بقسميها الرخو والشديد ٠

٣ ـ وهناك بعض الاختلاف بين تقسيم سيبويه للاصوات كما عرضناه معدلا وبين ما اصطلح عليه دارسو الاصوات العربية من المعاصرين ، فبينما يرى سيبويه أن أصوات القاف والطاء والهمزة مجهورة يرى علماء الاصوات المعاصرون انها مهموسة وذلك لعدم اهتزاز الحبال الصوتية أثناء اخراجها ٠ بل ان سيبويه اعتبر القاف صوتا مفخما ويعلل تفخيم القاف نطق بعض العرب لكلمة سَبَقْتُ وسَقْتُ صبقت وصقت ومعلوم ان الصاد من أصوات التفخيم الثابتة في العربية على طول تاريخها ٠ ومما يعزز ذلك أن سيبويه ساق صوت القاف مع الاصوات المفخمة الاخرى التي تمنع من الامالة في قاعد وصاعد وطائف (حـ ٢ ص ٢٦٤) ٠

٤ ـ ولقد سبق سيبويه عصره حين أشار الى صفات بعض أصوات العربية :

أ ـ الاصوات الانفية : اثبت سيبويه ان صوتي م ، ن صوتان انفيان فميان وليسا انفين فقط كما تذهب اليه جمهرة علماء الاصوات المعاصرين كما ذكر انهما احيانا يكونان انفيين فقط ، ثم ذهب يصفهما بأنهما شديدان بهما غنه أي أنه أثبت لهما انهما من اصوات الوقف أو الانفجار ولكن اللاقط الحاسم فيهما هو خروجهما من الانف ٠

ب ـ الصوت المنحرف : وهو صوت اللام وظلت هذه الصفة ملازمة له الى اليوم حتى في غير العربية من الالسنة ٠

جـ ـ الصوت المكرر : وهو صوت الراء فقد وصفه بأنه « شديد يجري فيه الصوت لتكريره » فأثبت له انه صوت مجهور وانه يقرب شبها من أصوات الشدة أو الانفجار والوقف لأن التصاق اللسان بما فويق الثنايا يحدث على الاقل مرتين وعند انفصال اللسان عن هذا الموضع يجري الصوت فيصف الراء

فيقول (حـ ٢ ص ٢٦٧) « والراء اذا تكلمت بها خرجت كأنها مضاعفة » ثم ينبه الى أن الراء ولو انها تبدو وكأنها صوت مضاعف الا انها تعتبر حرفا واحدا أو صوتا واحدا (حـ ٢ ص ٢٦٨) وهذا تنبيه لطيف يشير فيه سيبويه منذ قرون مضت الى الفرق بين وصف الاصوات وصفا تفصيليا وبين وصفها كصوتيات أي كوحدات وظيفية بين مجموع أصوات اللسان الواحد التي تتسق معا لتكون نظاما صوتيا متكاملا ٠ أي أنـــه هنا يميز بين مستوى الوصف التفصيلي phonetic وبين مستوى الوصف الوظيفي المميز phonemic .

د ـ أما ما سبق به عصره ولا زلنا في حيرة من أمره حتى اليوم فهو صوت العين اذ أنه يصفه بأنه بين الرخوة والشدة وانه ترددي ٠ كما أن وصفه لصوت الضاد يجعلها تختلف عن الضاد التي تنطق بها اليوم لانه يعتبر انه « ليس شيء من مخرجها غيرها » (حـ ٢ ص ٤٠٦) ٠

أما العين فيجمع دارسو أصوات العربية من الغربيين على انها احتكاكية fricative أو رخوة بتعبير سيبويـــه ، ووصف سيبويه لهـــا أصـــح من وصف المعاصرين ، اذ يبدو أنها تشترك مع الحاء في انها نتيجة تردد لسان المزمار في الحلق ترددا يصاحبه اهتزاز الحبال الصوتية في العين فتعتبر مجهورة ترددية ولا يصاحب هذا التردد اهتزاز الحبال الصوتية في الحاء فتعتبر مهموسة ترددية ٠ فاذا صح ذلك امكننا ان نجمع التكررية وهي الراء مع هاتين الترددتين وهما العين والحاء مع الغين والخاء وهما ترددیتان نتيجة تردد اللهاة على سطح مؤخرة اللسان فيكون عندنا خمس أصوات ترددية تؤلف في مجموعها قسما يقرب في عدد أصواته من أصوات الشدة والأصوات الرخوة ٠ ولا مجال هنا للاطالة في ذلك فقد عرضت له في موضع آخر[1] ٠

---

١ ـ انظر Linguistics : Theoretical & Instrumental, Cairo 'Ain Shams University Press, 1971.

هـ ـ ويجمع سيبويه أصوات العربية في ٤٢ صوت ، ٢٩ صوتا اساسية ، ٦ أصوات ثانوية منها الالف المفخمة ، ٧ أصوات فرعية أقل ورودا واستحسانا من الستة التي تسبقها • ولا بد أن ندخل في حسابنا هنا ان هذه الاصوات لا تجمعها لهجة واحدة وانما هي موزعة بين أكثر من لهجة واحدة من لهجات العربية •

و ـ وقد درس Henri Fleisch أصوات العربية كما عرضها سيبويه وخلص منها الى نتائج قيمة سوى أنه يعتبر أن صوت الهمزة صوت مهموس رغم ان سيبويه صريح في اعتباره مجهورا •

وقد اعتبر Fleisch الجيم العربية رخوة وشديدة affricats مع أن سيبويه يعتبرها شديدة ويوافق سيبويه هنا الباحثون المعاصرون • ويبدو ان هذا الرأي قد توصل اليه Fleisch بمقارنة الجيم الفصحى بالجيم الشامية •

كما أن فلييش Fleisch لم يذكر ما أكده سيبويه من ان الـراء صوت تكراري وان العين صوت ترددي •

« خاتمـة » :

ولنا ان نتساءل بعد عرض سريع لآراء ائمة النحاة العرب عما قدمه النحو العربي من جديد يستطيع النحويون المعاصرون ان يستزيدوا منه على ما عندهم وعند الغربيين من زاد نحوي • ويمكن ان نورد هنا هذه الحقائق الثلاث :

١ ـ حين كتب النحو العربي على أيدي أئمته من الاولين ومن نحاة العربية كان قمة ما كتبه النحويون اذ ذاك في الشرق والغرب على السواء •

٢ ـ بدأ النحو العربي في أصوله وعلى ايدي ائمته الاولين وصفيا

تحليليا يستنبط القواعد على نفس الاسس التي تسير عليها الدراسات اللسانية الحديثة ٠

٣ ـ ولقد اتسمت هذه الدراسات الرائدة على ايدي الائمة من أمثال سيبويه وابن جنى وابن سينا بشمول ومنهج تفصيلي تقصر عنهما كثير من الدراسات اللسانية الحديثة ٠

ولكن ذلك كله لا ينبغي الا يترك مجالا للاشادة الفارغة بالتراث الضخم الذي خلفه السلف دون جهد متصل دؤوب تسانده بحوث علمية نظرية وآلية يقوم بها علماء العربية المعاصرون ٠

* * *

- ٧ -

أرسطو ومدرسته

٧ـ١ـمقدمة :

يتخذ الكتاب والمفكرون الغربيون عادة من الفكر اليوناني مبدأ للفكر والحضارة في العالم ، وقد يكون ذلك نتيجة لتأثرهم بالفكر اليوناني والروماني أكثر من تأثرهم بغيرهما من الافكار والآراء • ولئن أدرك بعض علمائهم أن الفكر الهندي مثلا كان أسبق من الفكر اليوناني ، فان هذا الادراك لم يتجاوز فئة قليلة من علماء الالسنة درست فكر الهند وتراثه اللساني فأخصبت بهما بعض نواحي الفكر الغربي الحديث •

ولقد صحب بروز أثر الفكر اليهودي في الآونة الاخيرة اعتراف بعض الغربيين بأن هناك جانبا من الحضارة الغربية لا يرجع الى الفكر اليوناني وانما الى الفكر العبري الذيسبق الفكر اليوناني بمئات السنين، فنرى بعض الغربيين اليوم يصف الحضارة الغربية المعاصرة بأنها حضارة عبرية يونانية رومانية أوروبية ، ولكن ظلت الكثرة الغالبة من مفكري الغرب لا ترتضي بدءا للحضارة الانسانية الا ببدء حضارة اليونان •

ولكن النظرة الانسانية الشاملة تؤكد أن الحضارة الانسانية اقدم من ذلك بكثير بدأت في عهودها الاولى من لدن آدم حتى ابراهيم ، ثم تواترت منذ القدم من عهد ابراهيم حتى اليوم في تتابع للنبوات والرسالات غاب عنا معظمها

وبقي فينا ما حفظه الزمن لنا من رسالات موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، ولا مجال هنا للتفصيل في ذلك ٠

ويمكن أن نقسم ما يعنينا هنا من دراسة النحو في العصر اليوناني أقساما ثلاثة : ـ

أ) دراسة النحو قبل أرسطو ٠

ب) دراسة أرسطو للنحو ٠

جـ) دراسة النحو بعد أرسطو ٠

٧ـ٢ـ النحو قبل أرسطو :

كان مفكرو اليونان يدرسون النحو ويسمونه بلاغة Rhetoric ويدخلون في هذه الدراسة الجملة وأنواعها واصناف البديع من المحسنات اللفظية فهم الذين قالوا ان الجملة أنواع أربعة : الدعاء ، السؤال ، الاخبار ، والامر ٠

ولعل من أهم ما درسه مفكرو اليونان طبيعة اللسان الانساني وبنيته ثم ركزوا بشكل خاص على دراسة اللسان اليوناني ، واستخلصوا من هذه الدراسة نظريتهم في أقسام الكلام ٠

ويعتبر افلاطون استاذ ارسطو أهم من جاءوا قبل ارسطو وشغلوا انفسهم بالبحث في طبيعة الالسنة وأقسام الكلام ٠

٧ـ٢ـ١ـ أما بحثه في طبيعة الالسنة فقد تعرض لموضوعين اساسيين : ـ

أولهما : قضية ظلت تشغل اذهان الباحثين الى عهد قريب ثم انصرف بعض المحدثين عن البحث فيها الى أجل وعاود بعض البارزين من المحدثين الخوض فيها ، وهي : هل اللسان طبيعي ام اصطلاحي ؟ ويبدو نقاش افلاطون

لهذه القضية واضحا في احدى محاوراته (Cratylus كراتلاس) فيقول احد المتحاورين ان اللسان أمر طبيعي في الانسان فاسماء الاشياء هي نتيجة طبيعية لطبيعة الشيء نفسه ويرد عليه مناظره مجيبا ان الالسنة اصطلاحية وليست طبيعية فاسماء الاشياء وضعت لهذه الاشياء اصطلاحا وعرفا ، وهذا الاصطلاح او العرف ينتج عن اتفاق المحدثين للسان ما على هذه الاسماء وليس هناك ارتباط طبيعي بين الاسم والمسمى ، ويتضح من الحوار أن افلاطون كان يميل لوجهة النظر الاخيرة التي ترى ان الرابطة بين الاسم والمسمى رابطة اصطلاحية عرفية • والى هذا الرأي اتجهت الكثرة الغالبة من مفكري الغرب حتى اليوم •

ثانيهما : امـا القضيـة الثـانية ، فهـي قضيـة القياس والشـذوذ « The analogy- «anomaly dispute • فيرى القائلون بالقياس ان الكون كله والالسنة بما فيها اللسان اليوناني قياسية أي أنها تنظمها قواعد محددة • ويجيب المعارضون فيقولون ان الالسنة لا تخضع لقواعد محددة لا تخرج عنها بدليل خروج بعض أشكال الألسنة عن القواعد العامة المحددة للألسنة ، وهذا مشاهد بين الالسنة جميعا فهناك بين الاسماء والافعال في العربية وغيرها صيغ شاذة لا تخضع للقواعد العامة للاسماء والافعال •

ويبدو من الحوار هنا أن أفلاطون يقف مع القائلين بالقياس في الالسنة رغم مافي بعض الصيغ القليلة من الخروج عن القواعد العامة •

٧ـ٢ـ٢ـ ونجد عند افلاطون كذلك أول تعريف للجملة ، اذ يقول : « ان الجملة هي تعبير عن افـكارنا عن طريق أسماء Onomata وافعـال Rhemata ، وهذه الاسماء والافعال تحكي أو تعكس افكارنا في مجرى النفس الذي يخرج من الفم عند الكلام » ثم يعرّف الاسم على أنه اسم لفاعل الفعل ، أما الفعل فاسم « للفعـل نفسـه » • ومن الاسم والفعل تتكون الجمـلة Logos = λογος

وواضح من هذا ان أقسام الكلام عند افلاطون اثنان هما الاسم والفعل وهما قسما الكلام في الجملة الخبرية ، ولم يكن لافلاطون وارسطو من بعده اهتمام بغير هذا النوع من الجمل لان هذا النوع من الجمل هو الذي يستحوذ اهتمام الحكماء والمناطقة دون غيره من جمل الدعاء والسؤال والامر ٠

٧ـ٣ـ١ـ النحو عند أرسطو :

تناول ارسطو ما استحدث استاذه افلاطون من تعريف للجملة فأورد لها تعاريف جديدة دقيقة تتميز بما اتصف به ارسطو من عقل نفاذ ، فقال في تعريف الاسم : « الاسم صوت ذو معنى اصطلاحي لا يدل على الزمن ، ولا يعتبر أي صوت من الاصوات الداخلة في الاسم ذا معنى بذاته بمعزل عن صوت الاسم في مجموعه » ٠

وأما تعريفه للفعل فيقول فيه : « الفعل صوت لا يؤدي معنى بعينه وكفى ولكنه يدل على الزمن كذلك ، ولا يعتبر أي صوت من الاصوات الداخلة في الفعل ذا معنى بذاته بمعزل عن صوت الفعل فيمجموعه » ٠

أما تعريفه للجملة فهي عنده كل كلام مفيد ، وتعريفه للجملة هنا يقصر كثيرا عن تفسير افلاطون الذي ربط بين تعريف الجملة وما تحويه من اسم وفعل ثم ربط بين ذلك وبين المعنى الذي تعبر عنه الجملة ولم يغفل الاشـارة الى الجانب الصوتي للجملة ٠

ولكن تعريفي أرسطو للاسم والفعل لا زالا من نواح كثيرة أوفى من كثير من التعريفات في القديم والحديث للاسباب الآتية : ـ

١ ـ يبرز هذا التعريف الجانب الصوتي في الجملة التي تنتظم مجموعة من الاصوات المتآلفة ٠

٢ ــ ولا يغفل التعريف جانب المعنى ، ولكنه يقرر ان هــذا المعنى اصطلاحي وليس طبيعيا ، وبهذا قطع برأي في أحد القضايا الهامة التي شغلت مفكري ذلك العصر وما جاء بعده لزمن طويل ·

٣ ــ يبرز التعريف كذلك ان الاسم لا يدل على الزمن ، وهو هنا يأخذ في الاعتبار الفرق الاساسي بين الاسم والفعل اذ أن الفعل يدل على الزمن ، أما الاسم فلا يدل على زمن معين ·

٤ ــ ويشير التعريف الى ناحية هامة هي الوحـدة الصوتية في الكلمـة الواحدة ، فالكلمة الواحدة بهذا وحدة صوتية لا تقبل التجزئة ، وكل جزء منها لا يستقل بمفرده بمعنى خاص به ، أي أن الجزء الصوتي في الكلمة لا معنى له مستقلا عن باقي الاجزاء الصوتية الاخرى في الكلمة ، وهذا يقرب مما يقوله المحدثون من أن الصوتية Phoneme لا معنـى لهـا بمفردها ، ولا تكتسب معنى الا بتآلفهامع غيرها من الاصوات لتكوّن كلمة تكون اسما أو فعلا ·

وتعريف أرسطو للفعل يماثل تعريفه للاسم في دقته وشموله ويبرز فيه كذلك ان الفرق الاساسي بين الاسم والفعل هو ان الفعل يدل على زمن معين ، أما الاسم فلا يدل على زمن معين · ويعتبر التعريفان (أول تعريفين) عند اليونان القدماء يمكن ان ينطبقا على كثير من الالسنة في القديم والحديث · الا أن التعريفين مع ذلك قد انتزعا من نحو اليونانية القديمة ، ومعلوم أن الالسنة قديمها وحديثها لا تتفق في كل صورها وخصائصها ، فاذا كان الفرق الاساسي بين الفعل والاسم في اليونانية هو الدلالة على الزمن في الفعل وعدم وجود هذه الدلالة في الاسم فلا يشترط وجود هذا الفرق خاصة في الالسنة التي لا تفرق بمثل هذا الوضوح بين الاسم والفعل ، بل ان بعض الصيغ في الانجليزية قد تدل على زمن معين وهي أسماء خاصة اذا كانت جملا قصيرة ردا على جمل أطول منها ، مثل Soon اذا كانت هذه الكلمة ردا على سؤال مثل :

When is he coming ? أو حتى في بعض الصيغ العربية حين يكون الاسم معبرا عن صيغة الامر مثل : السفرَ السفرَ أو البدارَ البدارَ ٠

٧ـ٣ـ٢ـ منطق ارسطو :

ولقد كان أرسطو مفكرا منطقيا قبل أن يكون لسانيا ولكن فكره ومنطقه لا زال ذا صلة بواقعنا الفكري واللساني لليوم وذلك لسببين : ــ

أولهما : ان كل فكر لساني اليوم أو قبل اليوم أو بعد اليوم فهو فكر انســاني يتخــذ قاعدته النظرية من فكره المعاصر له ، ومهمــا اتسعت مدارك الانسان التطبيقية وتعقدت مبتكراته في شئون حياته فلا بد لهذه التطبيقات ، وهذه المبتكرات أن تقوم على قاعدة من فكر الانسان وحكمته ٠ ومن هنا فان اختلاف علماء الالسنة اليوم بين التجريبية ٠٠٠ Empiricism والعقلانية الالهامية Mentalism هو اختلاف في الفكر قبل ان يكون اختلافا في فهم حقائق لسان واحد أو الالسنة عامة ٠

ثانيهما : ان فكر ارسطو ومنطقه يعتبر اساسا لفهم الفكر الغربي المعاصر بل ولفهم الفكر الانساني العــام ، وذلك لان فكر ارسطو قد حــوى صورتين من صور المنطق :

أ) منطق القياس Deduction .

ب) منطق الاستقراء Induction .

ولقد اهتم خلفاء أرسطو من مفكري الغرب بمنطقه القياسي ورووا عنه المثال الذي ضربه للمنطق القياسي : كل انسان فان

سقراط انســـان

∴ سقراط فــــان

ثم خلفت من بعد أرسطو قرون سارت على نهجه : مؤمنة بمنطقه القياسي حتى كان عصر النهضة الاوروبية ، فنشر بيكون Bacon كتابه Novum Organum « المنطق الجديد » ، وقصد بهذا المنطق الجديد منطق الاستقراء . وقامت النهضة العلمية من بعده تتخذ هذا المنطق الجديد منطلقا لبعث علمي جديد ، حتى أصبح منطق الاستقراء هو المنطق العلمي الجديد الذي نستطيع عن طريقه ان نصل الى القواعد العامة التي تمكننا من الحكم على ما لم نعلم بما نعلم في العلوم التطبيقية .

وهذه القواعدالعامة نستطيع ان نصل اليها عن طريقالملاحظة والتجربة .

ولقد فات كثيرين من أولئك الذين فتنوا بمنطق ارسطو القياسي ، كذلك من أولئك الذين ظنوا انهم ابتكروا منطقا استقرائيا علميا جديدا بالثورة على منطق ارسطو القياسي أن فكر أرسطو حوى هاتين الصورتين من صور المنطق ، فهو يقول في كتاب الاخلاق(١) « ان كل تعليم لا بد ان يبدأ مما تعلمه أصلا ، ويصدق هذا القول سواء استعمل المعلم طريقة القياس أو طريقة الاستقراء . فالاستقراء يمدنا بالمبادىء الاولى أو العامة Universals ، كما أن القياس يبدأ بهذه المبادىء الاولى أو العامة . وهذا يعني انه لا بد من وجود مبادىء أولية ، وهي المبادىء الاولى التي بدأ منها القياس ـ وهذه المبادىء الاولية لا يمكن اثباتها الا عن طريق القياس ولا بد من الوصول اليها عن طريق الاستقراء » .

فاذا طبقنا هذا الكلام على المثل الذي ضربه أرسطو للمنطق القياسي فاننا نستطيع ان نرى أن القضية الاولى : **كل انسان فان** ، قد استعملت كقضية أولى في منطق القياس ولكنها كذلك نتيجة لمنطق استقرائي افترضنا صحتها بعد أن ثبت لدينا من استقراء حال البشر بأن كل انسان لا بد أن يموت فوصلنا

(١) Aristotle, Ethics, tr. by : Thomson, 1956 p. 174.

الى هذه النتيجة وهي أن كل انسان فان ، ثم استعملت هذه النتيجة الاستقرائية قضية أولى في المنطق القياسي • ولهذا فان صورتي المنطق الاستقرائي والقياسي متكاملتان نبدأ باحداها لنصل الى الاخرى •

فأرسطو اذن صاحب صورتين من صور المنطق تكمل أحداهما الاخرى تَفَرَّقَ عليهما الفكر الانساني من بعده فتابعه خلفاؤه المباشرون على منطقه القياسي ثم عدل علماء النهضة والعلم التطبيقي عن هذه الصورة من منطقه القياسي الى صورة أخرى من منطقه ، وهو المنطق الاستقرائي •

ويمكن أن يقال ان هاتين الصورتين من صور المنطق الانساني هما سبيلا العقل الى صنوف المعرفة الانسانية المختلفة ، فيصل العقل الانساني عادة الى صور المعرفة الانسانية عن طريق منطق الاستقراء حين يلاحظ بحسه وعينيه وتجربته النتائج الاستقرائية المشابهة للقضية الاولى من منطق أرسطو القياسي حين قال : « كل انسان فان » من أمثال : كل حي متحرك ، وكل متحرك عامل ، وما شابه ذلك ثم يستعمل هذه النتيجة الاستقرائية قضية أولى في منطق قياسي جديد يصل عن طريقه الى نتائج فرعية للقضية العامة الاولى وهو هنا يستعمل إلهامه ، وفطرته أكثر مما يستعمل حسه وتجربته • فالمعرفة اللسانية اذن سبيلها الحس والعقل أو الالهام وفي هذا ما قد يقربنا من فهم ما تشير اليه هاتان الآيتان الكريمتان :

« وعلم آدم الاسماء كلها » (البقرة ــ ٣١) وما تشير اليه من قانون الفطرة والالهام في تحصيل المعرفة •

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون » (النحل ــ ٧٨) وما تشير اليه من معرفة انسانية يكتسبها الانسان عن طريق الحواس والعقل •

٧ـ٣ـ٣ـ مقولات أرسطو :

ويقسم ارسطو المعرفة الانسانية Categories قسمين : همـا الجوهر والعرض ، كما قسم الجملة قبل ذلك الى اسم وفعل ، وقد يطلق على الجوهر والعرض اليوم الذات والصفات ، ثم يقسم الصفات تسعة أقسام هي : ـ

الكم ، الكيف ، الصلة Relation المكان ، الزمن ، الموقـــع Position الظــرف (Constriction) ، المعلوم Activity والمجهول Passivity .

وواضح صلة هذه الاقسام بأقسام الكلام عند أرسطو ، فالمعلوم والمجهول يرتبطان بالفعل ، أما الباقي فارتباطها بالاسم أوضح من ارتباطها بالفعل ٠

وواضح كـذلك ان المفكرين الذين جـاؤا بعد ارسطو اختلفوا في هـذه التقسيمات فوافقه بعضهم عليها ، كما خـالفه كثير منهم ٠ والاختلاف في هذه التقسيمات يشبه كثيرا الاختلاف في الادراك الانساني لبعض ظواهر الطبيعة كالوان قوس قزح مثلا فيراه أقوام على أنه ينقسم الى سبعة ألوان بينما ينظر اليه آخرون على أنه مكون من ثلاثة ألوان لا سبعة ٠

ولقد رأى بعض الكتـاب المعاصرين ، ومنهـم بوشنسكي Bochenski أنه يمكن تقسيم المعرفة الانسانيةثلاثة أقسام هي : ـ

١ ـ الاشياء (العناصر ، الجواهر) ٠

٢ ـ الصفات (مثل الالوان والاشكال) ٠

٣ ـ الصلات (وهي التي تربط القسمين السابقين بعضهما ببعض) ٠

ثم يقول ان هذه الاقسام يمكن أن ترجع جميعها الى أصل واحد هو الكائنات Beings لها مظهران وهما :

أ) المظهر الاول : طبيعة الكائن أو ماهيته أو جوهره ٠

ب) المظهر الثاني : هو وجود هذا الكائن ٠

وواضح أن هناك تقابلا بين هذا التقسيم الثنائي وبين التقسيم الثنائي للكلام الى اسم وفعل ، كما ذهب اليه أرسطو من قبل ٠

٧ ــ ٤ ــ النحو بعد أرسطو :

٤ ــ ١ ــ يعتبر ثراكس Thrax أول النحويين اليونانيين لانه كتب أول كتاب خاص عن نحو اليونانية وأسماه « فن النحو » أو الفن Techne وترجم هذا الكتاب بعد ذلك الى اللاتينية تحت اسم «فن النحو» Ars Grammatica وكان قد ظهر باسمه اليوناني سنة ١٠٠ قبل الميلاد في الاسكندرية ، والكتاب يصف أصوات اليونانية وصرفها ولكن الجزء الذي يصف نحو اليونانية لم يصل الى أيدينا ٠

وقد قسم Thrax كتابه ستة أقسام يعنينا منها هنا ثلاثة هي : ــ

(١) النطق أو الاصوات ٠

(٢) أصول الكلمات ٠

(٣) الصرف ٠

ويفرق الكتاب بين مختلف أصوات اليونانية فيفرق بين الاصوات الانفجارية أو أصوات الوقف وبين أصوات الاحتكاك ، كما يفرق بين أصوات الجهر وأصوات الهمس كما يسمي اللام والميم والنون والراء أصواتاً لينة ٠

ويتحدث فيما بقي من الكتاب عن اقسام الكلام ويعتبرها ثمانية ، وهو هنا يختلف عن أستاذه ارسطو في أنه لم يقسم الكلام ثلاثة اقسام ، كما فعل أرسطو

وأقسام الكلام عنده هي : الاسم ، الفعل ، اسم الفاعل Participle والأداة ، والضمير ، والحرف ، والظرف ، والعطف ·

وهذا التقسيم هو الذي سارت عليه المدارس النحوية الاوروبية منذ عهد ثراكس حتى اليوم ولم يدخل عليه خلفه الا تغييرات بسيطة ·

ويتضح من هذا التقسيم انه لم يفرد قسما خاصاً للصفة ، كما فعل بعض من جاء بعده ويبين السبب الذي من أجله أفرد لاسم الفاعل قسماً مستقلا لأنه يشارك الاسم في بعض خواصه ، كما يشارك الفعل في خواص أخرى · أما الظرف فيعرفه انه هذا الجزء من الجملة الذي يرتبط بالفعل أو يتصل به ·

٤ ـ ٢ ـ وأتى فارو Varro بعد ثراكس Thrax وتابعه في منهجه ولكنه قسم الكلام أقساماً أربعة أساسية :

أ) قسم ينصرف للحالة Case مثل الاسم ·

ب) قسم ينصرف للزمن Tense مثل الفعل ·

جـ) قسم ينصرف للحالة وللزمن كذلك مثل اسم الفاعل Participle .

د) قسم لاينصرف للحالة ولا للزمن مثل Circumstance .

وهذا التقسيم يوضح لماذا افردت التقاسيم الغربية للكلام منذ عهد Thrax قسما مستقلا لاسم الفاعل وقسماً مستقلا للظرف ، وان كانت بعض التقاسيم الحديثة قد شذت عن هذا الاتجاه ·

ويعزى الى (فارو Varro) انه مسؤول عن هذه التسمية لحالة المفعول في الألسنة الغربية اذ أنهـا تسمي حالة المفعول أو حالـة AcusatiVe أو « الاتهام » ذلك أنه يبدو أن « فارو Varro » قـد خلط بين كلمتي

Causal السببية ، Accusative « الاتهام » ،ويقصد بها في الواقع حالة المفعول،ومعلوم انالحالات فيالألسنةالغربية أربع أو خمس وهيحالة الرفع .... Nominative وحالة النصب أو المفعول Accusative وحالة الاضافة Genitive وحالة الجر Dative ، هذا الى حالة الآلة التي قد توجد في بعض هذه الالسنة دون بعضها ويسمونها Instrumental

٤ ـ ٣ ـ ويأتي في ختام أبناء أرسطو النحوي Priscian بريشان الذي كتب كتاباً عن نحو اللاتينية في القرن السادس الميلادي ، ويقع في ١٨ جزءاً يعنينا منه الجزءان الأخيران اللذين يتناول فيهما المؤلف نحو اللاتينية بعد أن عالج أصواتها وصرفها فيما سلف من أجزاء ٠

ويمكن أن يقال هنا أن بريشان كان أبعد عن أستاذه أرسطو زمنا وفكراً عن ثراكس Thrax أو فارو Varro ، ولذلك فان الاضافة للفكر النحوي ليست بذي بال لولا أن كثيرين من نحويي الغرب تابعوه في ناحيتين من نواحي فكره النحوي :

أ) الناحية الأولى : تقسيمه للكلام : فقد قسم الكلام ثمانية أقسام ولكنها تختلف عن الاقسام التي قال بها ثراكس Thrax اذ أنه استحدث هنا قسما جديداً سماه « التعجب » Interjection واستبعد اسم الفاعل من تقسيمه ،

ولا زال هذا التقسيم مأخوذاً به في الغرب حتى اليوم في غالب الاحوال ٠

ب) الناحية الثانية : تعريفه للجملة فقد سلك في هذا التعريف مسلكا يقوم على اعتبار المعنى دون اهتمام بالشكل حين قال : « ان الجملة ، هو نظم للكلام يدل على معنى كامل » ، ولا زال تجديد المعنى الكامل مشكلة من المشاكل التي واجهت دارس الالسنة من الظاهريين في العصر الحديث ٠

وقد أثر اتجاهه الى المعنى على تفرقته بين الاسم والفعل ، فذهب الى أن الاسم يسبق الفعل لان الاسم يدل على الجوهر والفعل يدل على العمل والجوهر يسبق العمل ولا يحفل النحويون كثيراً في هذه الايام للخوض في مثل هــــذه القضايا التي لا تصل الى فهم الالسنة في أصواتها وصرفهـــا ونحوها بسبب قريب ٠



- ٨ -

بَانيــني وَمَدرَسَــتُه

٨-١- مقدمــة :

تعتبر المدرسة اللسانية الهندية أقدم المدارس اللسانية ، فقــد سبقت المدرسة اللسانية اليونانية الى الوجود كما سبقت المدرســة العربيــة كذلك • وتختلف هذه المدرسة الهندية عن المدرسة اليونانية في أنها شغلت بالدراسات اللسانية كوسيلة لحفظ تراثها الديني ولم يكن انشغالها بالدراسات اللسانية وليد و َلَعِها بالدراسات الفكرية « الفلسفية » كما كان الحال عند اليونان القدمــاء •

والمدرسة الهندية بذلك تشبه المدرسة العربية المسلمة من ناحيتين :

الاولى : ان الدافع للاشتغال بالدراسات اللسانية كان واحدا في الحالين اذ كان الدافع دينيا عند الهنود وعند العرب • فلقد ابتغوا من وراء هذا الجهد اللساني الحفاظ على التراث الديني • ولكن السنسكرتية وهــي لسان الهنود القدماء تشبه هنا اللاتينية أكثر من شبهها بالعربية ، ذلك لان كلا اللسانين السنسكرتية واللاتينية عاشتا زمنا طويلا ثم ماتتا وورثتاهما عدة ألسنة جديدة في أوربا ومجموعة ألسنة أخرى حديثة في شبه القارة الهندية أما العربية فلا زالت حية حتى اليوم وان تنوعت لهجاتها على امتداد اتساعها المكاني الشاسع •

الثانية : ان الدراسات اللسانية عند الهنــود وعنــد العرب والمسلمين

تعمقت في دراسة الاصوات تعمقا لم تشهده المدرسة اليونانية في القديم ولم تشهده الدراسا تاللسانية الحديثة الا منذ أواخر القرن التاسع عشر واوائل العشرين الميلادي ٠

٨ـ٢ـ السنسكرتية :

وقد اطلق هذا الاسم على اللسان الهندي القديم كما كان ينطقه ويكتبه الكهنة القدماء وظل هذا الاسم مستعملا حتى الآن ولا شك ان الاسم هنا يدل على ما اسبغ على هذا اللسان من قداسة فالاسم نفسه في هذا اللسان يعني اللسان « الكامل المتقن » ، فهو لسان كامل متقن لانه اذ حفظ التراث الديني زمناً طويلا قد أصبح بذلك جزءاً من هذا التراث واكتسب بعضاً من قداسته ٠

وما دام هذا اللسان قد ارتبط ارتباطا وثيقا بالتراث الديني الهندي وأصبح جزءا منه فان دراسة هذا اللسان تصبح واجبا دينيا كذلك ومن أجل ذلك نظر الهنود القدماء الى دراستهم للسانهم على انه نوع من التعبد لان اللسان نفسه أصبح عندهم فرعا من الفيدا Vedas ٠ كما ان هذه الدراسة كانت غير مدونة بل كانت تتوارث شفاهاً جيلا بعد جيل ، ولعل في ذلك ما يفسر الشكل الرياضي التي كتبت بها مصنفات النحو في هذا اللسان فكتب النحاة عن السنسكرتية كانت تراثا شفهيا يتوارثه الدارسون دون كتابة أو تدوين الا في العهود المتأخرة ٠

٨ـ٣ـ النحو القديم :

ويعتبر بانيني Panini امام النحاة الهنود ولو انه لم يكن أولهم ، ولكن النحو الهندي وجد على يديه الصياغة المتكاملة في شكل كتاب يحوي ٤٠٠٠ قاعدة نحوية منظومة أقرب الى المعادلات الجبرية الرياضية وأصبح هذا الكتاب اليوم هو المرجع الاول والاخير في نحو الهندية القديمة ٠ ونستطيع

ان نلم الماماً سريعة بالنحو الهندي قبل بانيني قبل ان نعرض لكتابه في النحو ، فنرى ان المدرسة الهندية قبل بانيني قد عالجت موضوعين أساسيين :

أ ـ الأصوات ·

ب ـ الصرف والنحو ·

أ ـ **الاصوات :** لم يعالج الهنود الا أصوات لسانهم وهم في هذا قد سلكوا نفس السبيل الذي سلكه اليونان والرومان في القديم والذي سلكه العرب من بعدهم اذ لم تكن الرغبة في دراسة الألسنة الأخرى قد حازت اهتمام العلماء كما حاز ذلك اهتمامهم اليوم · وقد احرز الغربيون في ذلك سبقا ، كما نعلم ، في نواح كثيرة منها الدراسات الصوتية الآلية ، والدراسات اللسانية التاريخية ودراسة اللهجات دراسة علمية ·

لهذا كانت دراسة الاصوات عند الهنود دراسة غير آلية رغم تعمقهم في بحثها من الناحية اللفظية التي تهتم بدراسة مخارج الالفاظ articulation أكثر مما تهتم بصفاتها السمعية acoustics · والشبه قريب هنا كما هو واضح بين دراسة الاصوات عند الهنود القدماء وعند النحاة العرب الاولين ·

وقد قسموا دراساتهم الصوتية الى دراسة المخارج ودراسة الحروف ودراسة المقاطع الصوتية ، وميزوا بين المجهور والمهموس من الاصوات ، كما توصلوا الى وصف تغير الاصوات عند التقائها في الكلمات واستحدثوا اسما لهذا التغير فأسموه sandhi · والمثل في ذلك في كلمة السنسكرتية نفسها اذ انها كانت أصلا سمسكرتية فقلبت الميم نوناً للمشابهة الصوتية الوثيقة بين النون والسين وهي مشابهة أشد مما بين السين والميم ، لأن السين والنون أسنانيان أو لثويان ولكن الميم شفوية وليست اسنانية أو لثوية ·

ومثل ذلك في الانجليزية ـ قولهم impossible التي كانت قبل ذلك في فترة تاريخية ماضية inpossible فقلبت النون ميما لما بين الميم والياء من شبه يزيد عما بين النون والياء اذ ان الميم والياء شفويان في حين ان النون لثوية في الانجليزية • ومثل ذلك في العربية حين ننظر الى نطق كلمة أنباء مثلا في القرآن الكريم اذ أننا ننطقها امباء وليست انباء « فقلبت النون ميما لشدة مشابهة الميم للباء فالميم والباء هنا شفويا أما النون فاسنانية في العربية •

ب ـ الصرف والنحو : أما في الصرف فقد نظروا الى تركيب الكلمات فقسموها قسمين :

١ ـ معرب : وتلحقه أو تسبقه أو تتوسطه زوائد وينقسم قسمين . اسم وفعل •

٢ ـ مبني : ولا تلحقه أي من هذه الزوائد ، وينقسم قسمين : حرف وأداة •

وواضح انالتقسيم هنا شديد الشبه بتقسيم أرسطو للكلام الى اسم وفعل وأداة وتقسيم العرب للكلام الى اسم وفعل وحرف • ولعل الفرق الوحيد هنا هو ان التقسيم هنا ثنائي أو رباعي ، فالتقسيم الثنائي يضم الاسم والفعل معا باعتبارهما معربين أما الحرف والاداة فيكونان القسم الآخر باعتبارهما مبنيين • أما اذا نظرنا الى التقسيم على أنه رباعي كان علينا أن نقول ان الاسم قسم والفعل قسم آخر وان تشابها في ان كلا منهما معرب • وأما القسم الثالث فهو الحرف والقسم الرابع هو الاداة ، وكل من الحرف والاداة مبنيان •

وأما دراساتهم النحوية فقد اتخذوا الجملة اساسا لوصفهم التحليلي فقالوا ان الجملة لا بد أن تكون كاملة وكمالها يتأتى من وجهين :

أ ـ كمالها الشكلي •

ب ـ كمالها المعنوي •

فلا بد أن تكون الجملة كاملة من ناحية الشكل فتكون في أصواتها وصرفها متمشية مع قواعد اللسان الهندي ، كما تكون كاملة من ناحية المعنى اذ لا بد ان تعبر عن معنى مفهوم لدى السامعين من أصحابها ·

واضافوا الى ضرورة كمال الشكل وكمال المعنى في الجملة شرطا ثالثا هو أن ما تشتمل عليه الجملة من أصوات وكلمات لا بد أن يأتي وفق ترتيب زمني معين · وهذا الترتيب الذي اشترطوه للجملة شرط لم يسبقوا اليه ، ولعل كثيرين من المحدثين قد أخذوه عنهم حين أصر كثير من ائمة الالسنة المحدثين ان الترتيب الصوتي للكلمة وللجملة جزء أساسي من تكوينها ، ففي العربية مثلا تتشابه الكلمات : ملك ، كلم ولكم في الاصوات الداخلة فيها ولكن اختلاف المعنى في كل منها عن الاخرى يرجع الى طريقة ترتيب هذه الاصوات وفي الانجليزية مثل ذلك اذ تتشابه كلمتا feel, leaf في الاصوات المكونة لها ولكن اختلافهما في المعنى ينتج عن الاختلاف في ترتيب هذه الاصوات ·

٧ـ٤ـ بانيني :

يعتبر بانيني Panini إمام النحو الهندي القديم لأنه كتب كتابا عن اللسان الهندي القديم Sanskrit جمع فيه أكبر قدر من الحقائق عن هذه اللسان في أصواته وصرفه ونحوه بطريقة فذة لم يسبق اليها من قبل · وتقوم هذه الطريقة على أساسين :

(١) **الاساس الاول : الشمول** فوصفه للسان السنسكرتي وصف شامل للاصوات والصّرف خاصة شمولا يحاول به أن يستقصي كل قواعد هذا اللسان ما أمكنه ذلك ·

(٢) **الاساس الثاني : الايجاز :** وهو ايجاز أصبح معروفا لكل من تابع بانيني في مدرسته شارحا ومفسرا ، حتى لقد أثروا عنه قوله : « ان النحاة

يفرحون بالايجاز ، ولو كان هذا ايجاز مقطع واحد من كلمة واحدة ، فرحهم بالمولود الذكر يرزقونه » ٠

ولهذا كان كتاب بانيني المكون من ٤٠٠٠ سطر أو قاعدة اشبه بنظم النحو العربي في منظومات النحو المختلفة ، ولكنه كان كتابا يحفظ وتتوارثه أجيال النحاة من الهنود شفاها لا كتابة ٠

٤ـ١ـ الاصوات عند بانيني :

وتشمل السطور الاربعة عشر الاولى من كتاب بانيني أصوات السنسكرتية: الحركات والحروف (أو الساكنات) ويقسمها بانيني أربعة أقسام :

ا ـ **الحركات** : وهي اساسا كما في العربية الفتح والكسر والضم a , i , u ولكنه يزيد عليها الراء المنعكسة واللام المنعكسة ، وهما اللتان يرتد فيهما اللسان الى الخلف محدثا صوتا قريبا من الراء في اللهجة الانجليزية ـ الامريكية ثم يضيف بانيني الى ذلك أصوات المد تلحق الحركات السابقة أو تكون مختلفة عنها فتكون اما قصيرة نسبيا مثل حركة e في « بيت » العامية عندنا وحركة O في كلمة « لون » في العامية عندنا كذلك ٠ وقد يكون المد طويلا مثل au , ai .

ب ـ **الساكنات** : وتتكون اساسا من المهموس والمجهور على هذا النحو :

مهموس	مجهور	
ب	ب	شفوي
ت	د	أسناني
ب	د	منعكس
تش	ج	حنكـي
ك	ج	اقصى الحنك

وواضح ان هذا النظم يحتاج تفسيرا لانه نظم موجز أشد الايجاز وسوف تستعمل هذه القواعد الصوتية فيما بعد في كتاب بانيني في وصـف الصرف والنحو الهندي القديم ، وهي على صورتها هذه أقرب الى الرمز منها الى الوصف، فمثلا نجد ان السطر الاول يعطينا الحركات القصيرة في السنسكرتية وهـي مماثلة تماما للحركات القصيرة في العربية ولكن يتبع هذه الحركات القصيرة في السطر الاول برمز غريب هو ڻ وهي نون منعكسة retroflex (أي أن اللسان فيها ينثني الى الخلف وليس الى الامام كما هي الحال في النون العادية) وتحت هذه النون المنعكسة يضع بانيني خطا وهذا الخط يعني ان هذا الرمز ليس حرفا ولكنه يرمز الى الحركات القصيرة كلها ، وهو يستخدمه هنا وسيلة للايجاز الشديد لانه اذا أراد بعد ذلك أن يشير الى الحركات القصيرة كلها فانه لا يكتب هذه الحركات القصيرة مرة ثانية ولكنه يكتفي بأن يكتب (فتـح ن) أي أن الحركات القصيرة التي يريدها هي الحركات التي تبدأ بفتح وتنتهي بنون ن أي أنه يقصد بذلك الحركات القصيرة كلها ٠

واذا أراد أن يرمز للحركات القصيرة والطويلة كلها يكتفي بأن يرمز لذلك « بفتح تش » أي أنه يرمز للحركات كلها بأول حركة فيها وهي الفتح ويتبعه بالرمز الاخير في السطر الرابع وهو تش ويضع تحتها خطا علامة على أنه رمز وصفي فقط لا يدل على شيء من الحركات ، وان كان يدل على نهاية الحركات كلها ٠

ومن الطريف هنا إن نذكر أن بانيني قد ذكر ان هذه السطور الاربعة عشر الاولى قد أوحيت اليه من لدن أحد الآلهة الهنود فجاءت هكـذا رموزا منظمة لاصوات لسانهم المقدس ولعل هذا هو سر نظرة النحاة الهنود في القديم والحديث على السواء الى بانيني وكأنه المعلم الاول أو السيد الذي يرجع اليه الفضل في نظم النحو الهندي كله وعلى هذا الوجه من الايجاز الفريد ٠

ويضيف بانيني الى ذلك الاصوات الانفية والاصوات التي تتبعها الهاء في الالسنة الهندية القديمة والحديثة على السواء وقد سماها الغربيون الاصوات الهائية aspirated .

جـ ـ ساكنات الصفير : وهو مجموعة من الاصوات الساكنة ولكن بانيني أفرد لها قسما خاصا فاسماها أصوات الصفير ، وتابعه في ذلك من جاء بعده من علماء الالسنة الهنود حتى اليوم وهي السين والسين المنعكسة S ، والشين الحنكية S .

د ـ انصاف الحركات : وهو تعبير متداول في الدراسات اللسانية الغربية عموما اذ يعتبرون الواو والياء انصاف حركات ولا يعتبرونها ساكنات . ولعل ترتيب حروف العربية قد راعي ذلك حين وضع الواو والياء آخر حرفين في حروف الهجاء ، وهي كما نعلم كلها ساكنات .

ولكن انصاف الحركات في السنسكرتية وفي ألسنة الهند المعروفة الحديثة لا تشمل صوت الواو اذ توجد V بديلا عنه كما توجد الياء والراء المنعكسة واللام الملسانية .

ولعل وصف بانيني للحركات في السنسكرتية يوضح طريقته أكثر مما يوضحها وصفه للصرف والنحو الهندي اذ أنه يوجز نظام الحركات في السنسكرتية على الوجه الآتي :

(١) فتح وكسر وضم ن

(٢) ر ل ك

(٣) إمالة أمامية وامالة خلفية ن (eon)

(٤) أيْ و أوْ و تش

٨ـ٤ـ٢ـ الصرف عند بانيني :

لم يقسم بانيني الكلمة الى اسم وفعل كما فعل مَنْ قبله من النحاة وكما فعلت كل مدارس النحو عند العرب والغربيين علـى السواء ولكنه اصطنع قسما رئيسيا **هو الفعل** وجعل كل ما عدا الفعل من اسم وحرف قسما آخر ، وذلك بناء على ما يلحق بالكلمة من زوائد في نهايتهـا وهي كثيرة جـــدا في السنسكرتية ٠

ثم قسم هذه الزوائد ثلاثة اقسام :

أ ــ تبعا لاختلافها في النوع ، وذلك تبعا لاختلاف ما تحويه الزائدة من ساكنات وحركات ٠

ب ــ تبعا لاختلافها في المد أو الطول والمد أو الطول هنا من علامات الحركات وقد تقدم انه فصل الحركات على أنواع مختلفة من الطول ٠

جـ ــ تبعا لما يلحق هذه الزوائد من غنة أنفية ٠

ويمكن ان نقارن بين طريقة بانيني في وصف صرف الهندية بما يفعله بعض النحاة المحدثين في الانجليزية مثلا حين يريدون ان يصفوا بعض الكلمات في الانجليزية مثل زوجة Wife وجمعها Wives ومثـل سكين knife وجمعهـا Knives ومثيلات هاتين الكلمتـين في الانجليزية فيقولون ان اضافة علامـة الجمع هنا S ــ تغير من آخر الكلمة في هذه الحالات فتقلب الفاء فاء v f وبدلا من أن يقولوا ذلك يعبرون عنها بقاعدة يسمونها الاجهار تقلب فيهـا الفاء (وهي مهموسة) الى مثيلتها المجهورة (V) كما تقلب الثاء المهموسة الى مثيلتها المجهورة (ذ) وهكذا ٠

وتشبه طريقة بانيني هنا كذلك طريقة استنباط القاعدة العامة التي

تنطبق على الاسم والفعل في الانجليزية حين تلحق بهما الزائدة (S)
التي تدل على الجمع في الاسماء وتدل على المفرد الغائب في الافعال • فحين
نرى في الانجليزية هذه الاسماء

boys cats horses

وهذه الافعال :

He sees He eats He catches

نرى أن القاعدة **الصوتية** (وليست الهجائية) واحدة وهي أن الزائدة
اللاحقة بالاسم في الجمع في كلمة boys تنطق زايا (z) وتنطق سينا
S في كلمة cats وتنطق إز (iz) في كلمة horses ونرى أن هذه
القاعدة تنطبق كذلك على الافعال فنرى اللاحقة لفعل sees تنطق زايا
وتنطق سينا في eats وتنطق إز في catches أي أن القاعدة التي تنظم
اللواحق في الاسم والفعل هي سين اذا جاءت بعد صوت مهموس وهي زاي اذا
جاءت بعد صوت مجهور الا أنها تصبح إز بعد أصوات الصفير وهي السين
والشين والزاي والجيم • ويمكن اختصار هذه القاعدة لتصبح : اللاحقة
للاسماء وفعل المفرد الغائب :

= [ـ س ، ـ ز ، ـ از] = [(— s — z — iz)

ويمثل هذا الايجاز الشديد وضع بانيني قواعد الصرف في السنسكرتية
مع شمول لم يسبق اليه كما ذكرنا من قبل •

ولا بد أن نشير هنا الى أن بانيني أوجد في وصف الصرف الهندي رمزا
جديداً يشير الى الحذف خاصة اذا كان هذا الحذف لا يلتزمه اللسان في كل
موضع من مواضعه ومثال ذلك الجمع في الانجليزية • فاذا رأينا في الانجليزية

مثلا كلمة boys وفيها اللاحقة S ـ علامة الجمع وكلمة Oxen وفيها اللاحقة en ـ تدل على الجمع ثم نظرنا الى كلمة sheep مثلا حين تدل على الجمع أمكننا أن نقول أن اللاحقة هنا محذوفة وقد أسماها النحاة الانجليز لاحقة الصفر Zero suffix وهو اصطلاح مأخوذ عن بانيني وكتابه عن السنسكرتية ٠

٨ـ٤ـ٣ـ النحو عند بانيني :

قسم النحويون الهنود الكلام ، كما أسلفنا ، الى فعل والى ما هو غير فعل ، وغير الفعل هنا هو ما نسميه الاسم والحرف ، ولم يزد بانيني جديداً على هذا التقسيم ولم يخرج عليه ، فلا يعتبر كتاب بانيني جامعاً لأصوات السنسكرتية وصرفها ونحوها على طريقة سيبويه مثلا اذ أن سيبويه استهل كتابه بالنحو ثم أتبعه بالاسهاب في الصرف ولم يفرغ همه للاصوات الا في حيز يسير من الجزء الثاني ٠

غير أن للسنسكرتية نحوها الذي وصفه النحاة قبل بانيني والذي يتلخص فيما يلي :

١ ـ قسموا الافعال أقساماً عشرة يتميز بعضها بزوائد مختلفة واعتبروا أن هناك عشرة من الازمنة يدل عليها الفعل ، وبعض هذه الازمنة موجود في العربية مثل الزمن الحاضر والتام والمستقبل وبعضها لا يعرف الا في بعض الألسنة الغربية مثل الفرنسية حين يقسم الزمن المستقبل قسمين : مستقبل قريب ، ومستقبل غير قريب ٠

٢ ـ ثم قسموا الاسماء ثلاثة أقسام : المفرد والمثنى والجمع ٠ ووجود المثنى في السنسكرتية دليل على قدمها ومحافظتها على الاشكال الاولى للسان الهند ـ أوربي الأم الذي ورّث صيغة المثنى كثيراً من ألسنة أوربا الأكثر

حداثة مثل الانجليزية القديمة منذ ألف عام حين كانت الاسماء في هذا اللسان لها صيغ المثنى ثم اختفت بعد ذلك بقليل ٠

كما كان للاسم في السنسكرتية صيغ كثيرة احـــداها صيغة الفاعـــل Nominative أو المبتدأ وصيغة الاضافة Genitive وقد أحصى القدماء هذه الصيغ وحصروها في ثمان صيغ ٠

ولعل ما أضافه بانيني هنا هو نظم بعض هذه القواعد النحوية نظما موجزاً وان كان غير شامل شمول نظمه للاصوات والصرف ، ومن هذه القواعد تلك التي تناول بها التفرقة بين الاسم والضمير في السنسكرتية ٠

فالى جانب Sarva ومعناها في الاصل « صديق » هنـــاك مجموعـــة من الاسماء تستعمل في تراكيب خاصة تعتبر فيها هذه الكلمـــات ضمائر وليست أسماء وأهمها أن تدل هذه الاسماء على الآلة وعلى العطف أو الزمان والمكان ٠

وقد عمد بانيني في صياغته لهذه القاعدة الى طريقته النظمية الرمزية مما جعل شراحه ومفسريه فيما بعد يذهبون في تفسيرها كل مذهب حتى جاء بلومفيلـــد Bloom field فعرضها على ضوء دراسته اللسانية التاريخية للألسنة الهند ـ اوربية فوجـــد أن الاسماء في هذه الألسنة تحول الى صيغة الضمائر في حالة جمع المذكر المرفوع (أي اذا كان مبتدأ أو فاعلا) ، فاذا كانت الاسماء تحول الى ضمائر في الالسنة الاوربية التي لم تبلغ في قدمها مبلغ اللسان السنسكرتي فوجود هذه القاعدة في اللسان الأم من باب أولى ٠ ولكن ذلك اقتضى بلومفيلد أن يفرغ هذا الشرح العلمي في عشر صفحات موجزة أشد الايجاز لأنه تناول بالتفنيد آراء من سبقه من الشراح ثم أورد شرحه الجديد للفقرة التييصف فيها بانيني الضمائر في الجزء آلاول منكتابه ٠

ولقد أجمل أحد علماء الألسنة الهنود طريقة بانيني النحوية فقال انها طريقة رياضية كلية تأخذ من أصحاب النحو الحديث اهتمامهم بسياق الكلام وترتيب الكلمات في الجملة كما تأخذ عن غيرهم اهتمامهم بتتبع الكلمة في صيغها المختلفة ، فصيغتها الاولى قد تكون الفعل ثم يتعقبها بعد ذلك في صيغها المختلفة كاسم أو ضمير أو أداة شارحاً ما يعتريهـــا من تغير صرفي وصوتي باسهاب رمزي – ثم هو بعد ذلك لا يتابع المدرسة اليونانية ومن سايرها من اهتمام بتقسيم الكلام أقساماً كثيرة قد تصل سبعة أو ثمانية ولكنــه يهتــم بالقواعد العامة التي تنظم هذه الأقسام وقد تَعُمّ الفعل والاسم معاً كما رأينا في قاعدة اللاحقة .د في الانجليزية التي تنتظم جزءا من الاسم والفعل معاً ، وقد يسميها بعض المحدثين الطريقة الظاهرية لأنهـــا تدرس اللسان كظاهرة انسانية متكاملة phenomenon ، وقــد يسمي بعضهم هذا المذهب الطريقة التحويلية التي تتبعها المدرسة التحويلية وعلى رأسها تشومسكي وقد عرضنا للمحة منها في أوائل هذه الصفحات ·

ولكن طريقة بانيني في جملتها طريقة خاصة تقصد الى الشمول والايجاز في الوصف فهي طريقة وصفية تنتسب الى الوصف الشامل بأكثر مما ينتسب اليه كثير من مدارس النحويين المعاصرة ·

★ ★ ★

مراجع الكتاب

١ ــ القرآن الكريم ٠

٢ ــ الكتاب لسيبويه : جزءان ٠ المطبعة الأميرية ١٣١٧ هـ ٠

٣ ــ ابن سينا : أسباب حدوث الحروف أو مخارج الحروف : طهران (١٣٣٣ هـ) ٠

٤ ــ ابن جني : سر صناعة الاعراب : الجزء الأول : القاهرة ١٩٥٤ م
ابن جني : الخصائص : ٣ أجزاء ٠ المطبعة الأميرية ١٩٥٤ م ٠

References

1 — Aristotle. **Ethics.** Tr. Thom sen 1956.

2 — Bach, Emwon .**An Introduction to Trans fornational Grammars.** Newyork, 1964.

3 — Bloch, Bernard, and George L. Trager, **Outline of Linguistic Analysis.** special publications of the Linguistic Society of America. Bàltimore, 1942.

4 — Bloomfield, Leonard. **Language,** Newyork, 1932.

5 — Chomsky, Noam. **Syntactic Structures. The** Hague ,1957.

6 .. ..**Aspects of the Theory of Syntax.** Cambridge, Mass, 1465.

7 — .... **Language and Mind.** Newyork 1968.

8 — Dimeen, Francis P. **An Introduction to General Linguistics.** Newyork, 1967.

9 — Gleason ,H. A. Tr. **An Introduction to Desecriptive Linguistic.** Reued. Newyork, 1961.

10— Harn's, Zellig S. **Structural Lingstics.** chicago, 1960.

11— Tespersen, Otto. **The philosophry of Grammar, Newyork** 1965 .

12— Katz, Terrold T. and Paul A. Postal, **An Integrated Theory of Linguistic Descriptions.** Cambridge, Mass, 1964.

13— Misra, V. N. **The Descriptive Technique of Panini . Mouton** 1966.

14— Robins, R. H. **A Short History of Linguistics**. London 1967.

15— Sapir Edward, **Language**. Newyork, 1921.

16— Saussure, Ferdinand De. **ACorsein general Linguistics, ed.** Charles Berlly and Albert Sechehaye in collaboration with Albert Rcidlinger, Tr. Wade Boskin. Newyork, 1959.

المحتوى

• الشركة المتحدة للتوزيع
بيروت - شارع سورية - بناية صمدي وصالحة
ص.ب ٧٤٦٠ هاتف ٢٩٥٥٠١

